في المعركة

يوميات غزة

معين بسيسو



مقدمـة

... ضربت العاصفة ذاك الطائر ،
وأسقطته من السرب الذى كان يطير معه ...
وتحت جذع شجرة ، عريان الصدر ،
وعريان الجناحين من الريش ،
كان ذاك الطائر يرتعش ...
وراحت طيور السرب تبحث عن الطائر ...
حتى اكتشفت مكانه تحت جذع الشجرة ...
والتف السرب حوله ...
وأخذ كل طائر ينتزع بمنقاره ،
ريشة من صدره ، وريشة أخرى من جناحه ،
ويغرسها فى صدر الطائر العريان وجناحيه ،
واكتسى الطائر بالريش ...
وبسط جناحيه ...
ونهض الى أعلى ...
وهكذا ... ستنهض أيها الوطن ...

...قال موشى دايان ذات يوم لأحد الصحفيين :

ان مفتاح اية مدينة ،
ليس أكثر من قطعة من الحديد
تلقى تحت جنازير الدبابة
الاسرائيلية فتأخذ شكل المفتاح
الذى نريده .. لبـاب المدينة التى نريد فتحها ...

ولكن جنازير دبابة موشى دايان ...
قد اخذت تدوس على شىء آخر
غير قطعة الحديد ...

على أحلام دايان نفسه فى السيطرة على غزة ...

علبة الكبريت التى اسمها قطاع غزة

على طول الطريق من رفح الفلسطينية حتى مدينة غزة يمتد شريط من الأسفلت طوله ستة وأربعون كيلو مترا تقريبا وعرضه فى المتوسط عشرة كيلو مترات .. وبين طول الشريط وعرضه وفى هذه العلبة من الكبريت التى تحمل اسم قطاع غزة - يوجد ما يقرب من نصف المليون من الشرائح الباقية من جسد الشعب العربى الفلسطينى .

فى وسط هذا الشريط توجد تلك المدينة التاريخية المعروفة بمدينة خان يونس .. ولقد تكون صفحات التاريخ القديم تطفح بالكثير من أخبار هذه المدينة ، غير أن التاريخ الحديث وبالذات تاريخ المقاومة المسلحة قد قام بتقديم صورة جديدة لهذه المدينة ،

غير تلك الصورة القديمة التى عرفت بها مدينة خان يونس ، حيث كانت محطة لقوافل التجار ، وحيث كانت خانا أو فندقا لاقامتهم ومساوماتهم ولصفقاتهم التى يعقدونها بينهم ... لقد تبدل وجه خان يونس،ولم تعد محطة للقوافل التجارية ولا فندقا لهم ، بل أصبحت أحد المتاريس الرئيسية للمقاومة ، وفى أيام العدوان الأولى تمكنت هذه المدينة بامكانياتها البسيطة : البندقية التقليدية ، قنبلة مولوتوف ، بصفائح البنزين ، بمتاريس الشوارع وبكل ما يملكه الانسان من أسلحة فى مواجهة الغزو ، تمكنت من أن تصد الغارات الثلاث للاحتلال الاسرائيلى فى بدء العدوان ، حتى تمكن أخيرا من احتلالها بواسطة تغطية جوية كثيفة ، وبواسطة فيلق مدرعاته وجنوده الزاحفة تحت ستار القصف الجوى المتواصل وراء جنازير الدبابات والمصفحات .

وعلى بعد أربعة وعشرين كيلو مترا تقريبا من مدينة خان يونس توجد تلك المدينة المعروفة فى التاريخ القديم السحيق بأنها المدينة التى سقط تحت أعمدتها شمشون القديم ، الذى يعرفه سكان مدينة غزة باسم آخر هو اسم : (أبو العزم) والتى تعرف فى التاريخ المتوسط أو تاريخ الأيام الأولى للغزو الأوروبى الحديث بأنها المدينة التى لم تمكن الغازى نابليون بونابرت من أسوارها، الا بعد معركة دامية استخدم فيها الغازى كل مدافعه ، ودفع اليها بكل كتائب فرسانه .. وكانت بالنسبة اليه معركة تقرير المصير له ولحملته ، قبل أن يواصل مسيرته ويتوقف نهائيا تحت أسوار عكا .. المدينة التى تحدت مئذنة جامع أحمد بن طولون ، وقد ارتفعت فوقها كل مواسير مدافع الغازى ، المدينة التى حلم نابليون طويلا ، وهو قابع فى خيمته المنصوبة على ربوة أمام المدينة المحاصرة — أن ينحت من فأس قائدها (الجزار باشا) حدوة لحصانه ، كما كان يقول لضباطه ... وبالطبع فان فأس (الجزار باشا) لم تتحول الى

حدوة لحصان الغازى ـ بل كانت فأسه تلك الراية التى ارتفعت فى السارية لتشير الى هزيمة نابليون ، وكأنها كانت تطير عبر الأفق حتى ترفرف فى سماء موسكو حيث يهزم الغازى للمرة الثانية ، بعد أن هزم للمرة الأولى تحت أسوار عكا .

وفى المكان أو القلعة الصغيرة المعروفة فى غزة باسم (الدبويه) كان نابليون فى حجرته بالطابق الثانى من القلعة ، حيث بات ليلته يفكر بعد الهزيمة العسكرية للمدينة فى الأسلوب الذى يتمكن به من هزيمتها سياسيا وأن يفرض عليها أسلوب التعاون معه .. ورغم الليلة الطويلة التى أمضاها نابليون مسهدا يضرب بحذائه بلاط حجرته ، فلقد رفضت المدينة وظلت ترفض كل أساليب التعاون مع الغازى ... واذا تقدمنا قليلا فى التاريخ الحديث لهذه المدينة التى أصبح اسمها اليوم هو تلك الراية التى ترفرف فى سارية المقاومة المسلحة وأصبحت أخبارها هى المانشيت الأول فى جريدة المقاومة وفى الجرائد العربية الأخرى ، اذا تقدمنا قليلا فى التاريخ الحديث لهذه المدينة ، الى تلك الأيام السوداء بالنسبة للجنرال البريطانى (اللنبى) حيث ارتد عن أسوارها أكثر من مرة ، وتراجعت هجماته وتكسرت على متاريس الحامية التى كانت تدافع عنها ، ولم يتمكن من عنقها الا بواسطة دليل بدوى اشتراه الجنرال البريطانى بالذهب،فقاد البدوى العميل والجيش البريطانى الى أضعف جزء تمكن أن يتسلل من خلاله الى قلب المدينة فيحتلها .... ويدور التاريخ لكى يسقط وهو يحتضن تراب غزة مدافعا عن متاريسها ، أحد أحفاد ذلك البدوى العميل ...

واذا تقدمنا أكثر فأكثر فى التاريخ الحديث ... الى ما بعد الثلث الأول من القرن العشرين بقليل ، الى الثورة المسلحة الكبرى فى تاريخ الشعب العربى الفلسطينى ، ثورة ١٩٣٦ ... وقلبنا

صفحات جديدة أخرى فى تاريخ مدينة غزة ٠٠٠ فلعل أبرزها فى تلك الفترة كان ذلك الصباح من أيام الثورة الفلسطينية حيث استيقظ حاكم اللواء البريطانى على طرقات أحد ضباطه فى ساعة مبكرة ليعلن له أن الخط الحديدى الذى يمتد من مدينة غزة حتى قرية « أسدود » (والتى ما أكثر ما ترتكب الصحف العربية ذلك الخطأ الفادح حينما تستخدم الاسم الاسرائيلى « اشدود » بدل الاسم العربى) ٠٠٠ حينما أعلن الضابط البريطانى لقائده ان أهل غزة وفصائل المسلحين بها قد انتزعت قضبان السكة الحديد ٠٠٠ وعلى طول ثمانية وأربعين كيلو مترا ٠٠٠ أوقفت بالتالى أهم وسائل مواصلات العدو ، وضربت فى الصميم تحركات جنوده لضرب الثورة المسلحة ٠

فى تلك الليلة خرجت غزة بكل نسائها وشيوخها وشبابها وأطفالها الى القضبان الحديدية تنتزعها بفئوسها وأظافرها وتلقى بها بعيدا على جانبى الطريق وتضرم النيران فى ألواح الخشب ، ثم تزرع بالأغصان وبالألواح المحترقة كل ذلك الشريط من غزة حتى قرية أسدود ٠٠٠ ان بعض سكان غزة لا يزالون يشيرون الى سقوف بيوتهم ويقولون بكبرياء : هذه القضبان من الحديد فى السقف ، هى قضبان سكة حديد الانتداب البريطانى ٠٠٠

وأعاد الانتداب البريطانى زرع قضبان السكة الحديد بين غزة وأسدود بأيدى جنوده ، واستخدمت الفصائل المسلحة من الثورة فى الجنوب ، أسلوب زرع الألغام تحت القضبان ٠٠٠ وأصبح من المشاهد المألوفة رؤية القطارات الحربية ، وهى ممدة على جانبى الشريط ٠٠٠ وللانتقام من المدينة ومعاقبتها ٠٠٠ أخذ الحاكم العسكرى البريطانى ٠٠٠ يضع رجال الدين المسلمين ٠٠٠ والمسيحيين

.. أخذ يضع تلاميذ المدارس ورجلا عن كل عائلة فى غزة فى عربة مستقلة تسمى «التروللي» ، ويدفع بها أمام القطار الحربى لكى يرغم الثوار على الكف عن زرع الألغام ... تحت القاطرات الحربية ... فاذا كان لابد من زرع الألغام ... فلتنفجر تحت عربة « التروللى » ... ومع ذلك واصلت الثورة المسلحة سيرتها ... وصممت الألغام بحيث لا تنفجر الا تحت حمولة ثقيلة : حمولة القطار الحربى نفسه .

وإذا أمضينا أكثر فى تقليب صفحات تاريخ هذه المدينة ، فلابد أن تقود تلك الصفحات الى الشارع الرئيسى الذى يشق صدر المدينة الى نصفين ... وهو الشارع المعروف باسم شارع « عمر المختار » ... فحينما أمسك المحتلون الايطاليون بالبطل الليبى العظيم « عمر المختار » وقدموه للمحاكمة وشنقوه فى أعقابها ، تظاهرت المدينة كلها ضد حبال المشنقة الايطالية ، ورفعت أيدى شيوخها ورجالها ونسائها لافتة يتوهج فوقها اسم البطل الليبى المشنوق الذى أطلق اسمه على الشارع الرئيسى فيها ، فلم يكن فى امكان غزة فى ذلك الوقت أن تقدم للشهيد الليبى غير صدرها العريان وقد حفرت عليه اسمه ...

ثم يجيء الفصل الحديث من فصول كتاب تلك المدينة ... ولعل فى تلك الاوراق القديمة والمعاصرة عن تلك المدينة امكان العثور على تلك الأسئلة التقليدية التى لا يكف الناس عن سؤالها ... حول غزة التى تعتبر فى نظر خبراء الاستراتيجية العسكرية مدينة مفتوحة ، مدينة تفتقر الى مقومات المقاومة التقليدية والحديثة ، تفتقر الى الغابات والمستنقعات والجبال ... ومع ذلك فهى النموذج الحى للمقاومة الشعبية المسلحة فى الأرض المحتلة كلها .

ان روح أية مدينة ووجدانها وضميرها وثقافتها لا يمكن أن تؤلف فى عشرات السنين - بل تحتاج الى وقت أطول كثيرا من العشرات والمئات ... فتاريخ أية مدينة والامساك بالمفتاح الذى يقود الى حجراتها السرية والى مداخلها النفسية والوجدانية يحتاج الى حقبة طويلة من التاريخ ... فالمدينة لا يمكن أن تصنع أو أن تطبخ هى وتاريخها فى حلة من حلل « البريستو » ... لابد من السنة النيران الهادئة الطويلة وعبر مئات السنين للتاريخ القديم والمتوسط والحديث ... ومدينة غزة بوقفتها التاريخية فى وجه الاحتلال الاسرائيلى هى الرد الذى تقدمه المدينة على تلك العجرفة الفاشية ، حينما قال دايان لأحد الصحفيين :

« ان مفتاح أية مدينة لا يساوى أكثر من قطعة »
« من الحديد تدوس عليها جنازير دبابة اسرائيلية »
« فتصنع منها مفتاحا يمكن أن يدور فى قفل باب أية »
« مدينة ويفتحها .....

واذا كان موشى دايان قد تمكن من أن يلقى بقطعة من الحديد تحت جنازير دباباته ... ويصنع منها ذلك المفتاح الذى تحدث عنه ... اذا كان قد تمكن من أن يفتح بالسونكى أبواب هذه المدينة أو تلك فى الأرض المحتلة ... فموشى دايان لم يتمكن بكل مفاتيحه المطروقة تحت جنازير دباباته ... وبكل سناكى بنادقه ... أن يفتح صدر روح المقاومة السياسية والمسلحة التى تواجه به غزة الاحتلال الاسرائيلى ...

ان غزة لا تطالب أية مدينة عربية أن تقدم لها سيفا من الذهب ... كما قدمت مدينة « لندن » سيفها الذهبى فى أعقاب

الحرب العالمية الثانية تحية لنضال مدينة « ستالينجراد » وبطولتها .. ولكن غزة تطالب بشىء آخر ... غير السيف الذهبى أو الفضى ... تطالب بحجر واحد يضاف الى متاريس المقاومة فى شوارعها ... تطالب بمشط رصاص يضاف الى عناقيد الرصاص التى تتدلى من أعناق مناضليها ... تطالب بحملة على النطاق العربى والعالمى تمكن عيون المائة مليون عربى ... وعيون مئات الملايين فى العالم من الاطلال عليها ... فحينما يتحول جرح المدينة الى شباك فعلى العيون أن تنظر ...

وسنحاول فى هذه اليوميات عن غزة - أن نطل ... ومن أكثر من نافذة مفتوحة فى صدرها ... المدينة التى أصبح خبزها يعجن من دقيق البارود ... وأصبح زبدها هو دمها الذى تدهن به رغيف الخبز ...

... كان المدرسون فى معسكرات اللاجئين أيام الكويكرز ... يقبضون مرتباتهم قطعا من الصابون ... وسمكا مقددا وبصلا لكى يفرض عليهم الرحيل من القطاع ... ورغم ذلك واصلت تلك الكتيبة المقاتلة بأصابع الطباشير معركتها لانقاذ جيل معسكرات الصفيح عام ١٩٤٨ ... انه هو جيل القنابل اليدوية اليوم فى شوارع غزة ...

القتال بعيدان الثقاب وبأصابع الطباشير

... كانوا يحاولون أن يلائموا نفسيا بين حياتهم الجديدة في المعسكرات ... التي بنوها أول الأمر بمساعدة من يسمون أنفسهم « بالكويكرز » أو الأصدقاء !!! ... الذين كانوا فيلقا من الفيالق الأمريكية ... التي تستبدل بالقنبلة اسما آخر هو : الصداقة ... وتصبح الجاسوسية السرية في السراديب تحت الأرض أو في الحجر المبطنة الكاتمة للأصوات ... هي الجاسوسية العلنية على شكل الكويكرز ... أو غيرهم ... كان المهاجرون الفلسطينيون من يافا ومن بئر السبع ومن المجدل ومن قرى أسدود والمسمية والكوفخه ... وغيرها ... كانت الطوابير التي أسكنها الكويكرز

أكواخ الصفيح ... فى أعقاب كارثة ١٩٤٨ ... تحاول أن تلائم وهى فى معسكرات الهجرة بين حياتها الجديدة فى المنفى الجديد ... وحياتها القديمة فى شوارع مدنها وقراها التى خلفتها وراءها .. لقد تحولت أسماء المدن الى أسماء المعسكرات ... تحولت يافا .. وبئر السبع ... والمجدل ... وأسدود ... والمسميه ... الى أسماء معسكرات النصيرات ... والمغازى ... والبريج ... وجياليا ... والشاطىء ...

***

ان الطائر لا يحمل معه ... وهو يهاجر ... عيدان قش عشه القديم ... ولا يحمل أيضا ذكرياته معه فوق هذه الشجرة أو تلك الشجرة .... ولكن الأمر يختلف تماما حينما يتعلق بالانسان المهاجر ... فاذا لم يمكنه المحتل الغازى من أن يحمل معه غير الثياب التى تغطى جسده ... فهو لا يستطيع أن يمنعه من حمل ذكرياته أو أن يطمس من عينيه ... مهما أغرقهما بالدم .. صورة البيت والشارع .. وحتى التفاصيل الصغيرة عن البيت والشارع والمدينة ...

ولقد كانت تلك الطوابير المسحوقة تحت أنقاض الهزيمة المفاجئة تحاول أن تجدد ذكرياتها فى منفاها الجديد .. بأبسط الأشكال والصور التى تستطيعها ... واذا لم يكن من الممكن أن يزرع المهاجر أرض حجرة الصفيح بالقمح ... فلا أحد ... حتى الأصدقاء الأمريكيون ! « الكويكرز » يستطيعون أن يمنعوا الفلاح الفلسطينى المهاجر من الشعور بالغصة فى الحلق ... حينما كانوا يقدمون له ... بدل قمح بئر السبع ... ذلك الخبز الجديد الذى حملته السفن - فى صناديق - الى ميناء بيروت ... ومنها الى غزة ... وقد كتب على الصناديق بحروف بارزة (هدية من

شعب **الولايات المتحدة الأمريكية**) !!!! فالمهاجر الفلسطينى يذكر جيدا ··· أن صناديق أخرى ··· لا تحوى دقيق الخبز ··· كانت تصدر مباشرة الى ميناء تل أبيب ··· صناديق قد رصت فيها أصابع الديناميت ··· وعلى الصناديق قد كتب أيضا بالحروف البارزة : « **هدية من حكومة الولايات المتحدة الأمريكية** » ·

***

اذا كان المهاجر الفلسطينى قد أرغموه على أن يستبدل بدل قطعة الأرض التى يملكها ··· بطاقة زرقاء ··· هى بطاقة لاجىء ··· وأن يصرفوا له ··· بدل البيت الذى يملكه ··· كوخا من الصفيح ··· فلم يستطيعوا أن يرغموه على أن ينسى ··· وألا يغضب من تلك الصورة الجديدة التى أصبح فيها ·· أو التى أرغموه على الدخول كالصورة المزيفة فى اطارها اللامع ··· كان المعسكر طبعة أمريكية جديدة ··· يريدون تقديمها للمهاجر الفلسطينى ··· بدل الكتاب القديم الذى اسمه « فلسطين » ··· كان المعسكر يشبه السيرك ··· أو الكرنفال ··· هكذا أرادوا له أن يكون ···

··· كانت صورة غريبة حقا لم يألفها المهاجرون أبدا فى شوارع مدنهم القديمة ··· وحتى حين كان المهاجر يقف على باب بيته ويحدق فى أمثاله من المهاجرين ، وهم يعبرون الطريق أمامه·· كان يفتح عينيه وكأنه فى حلم ··· أو أنه يتخبط فى مخالب كابوس ثقيل وبراثنه ، خليط من الرجال والنساء والأطفال ··· وعلى أجسادهم خليط من الثياب ··· قميص مشجر من شيكاغو ··· حذاء قديم من لندن ··· قبعة مثقوبة من المكسيك ··· سروال « كاوبوى » من تكساس ··· كان « الكويكرز » يقاتلون تحت نوافذ مدن العالم كله ··· من أجل أن يتبرع سكان مدن

العالم ... بكل ما يستطيعون أن يستغنوا عنه ... من الأحذية ... والقمصان ... والمعلبات ... الى تلك الطوابير التى تعهدت جماعة « الكويكرز » بأن تتلقى اعترافاتها قبل الموت ... وتقدم هذه الاعترافات مكتوبة فى تقرير لمن يهمه الأمر ... !! .. لقد كان المسدس القديم الأمريكى الذى لعب لعبته القديمة مع الهنود الحمر الأمريكيين يحاول أن يلعب لعبته الجديدة ومع الهنود الحمر الجدد ... بأيدى الكويكرز ... ولكن بغير طلقة الرصاص وبغير المسدس ... فالسيول التى كانت تجتاح معسكرات الصفيح .. كانت القنبلة الزمنية الموقوتة التى تتفجر فى كل فصل من فصول الشتاء ... وتطيح بمعسكرات الصفيح ... كان التجويع المنظم ... الذى تستخدم فيه الآلة الكاتبة ... وعلم الاحصاء ... والتقارير المكتوبة على الورق الأزرق الشفاف ... هو رصاصة فى مسدس كاتم للأصوات ... يطلق فى الصباح وعند الظهر ... وعند غروب الشمس ... وفى فم كل مهاجر ... وليست تلك الصورة التى قدمها أحد العاملين فى معسكر النصيرات فى أعقاب سنة ١٩٤٨ لأحد المسئولين الأمريكيين الذى جاء يزور المعسكر... ويراقب سير العمل فيه ... والدقة التى يوزع بها التموين على اللاجئين ... بالصورة الكاريكاتيرية الضاحكة ... بل كانت تجسد بالفعل الصورة الحقيقية بلا ماكياج لما آل اليه حال المهاجر الفلسطينى فى ظل الانتداب الثانى الجديد لوكالة غوث اللاجئين وتشغيلهم !!!! والتى ورثت الكويكرز ... بعد أن أتموا المرحلة الأولى من برنامج « ابادة الهنود الحمر الفلسطينيين » ...

لقد أحضر العامل الفلسطينى مائدة ... وضعها فى باب المعسكر ... وفوق المائدة وضع ملء ملعقة من القمح ... وملء ملعقة من السكر ... وملء ملعقة أخرى من الزيت ... وأمسك بدجاجة فى يده علق فى عنقها بطاقة التموين الزرقاء التى يعطاها

اللاجىء ... ووقف الى جانب المائدة ... وحينما جاء المسئول الزائر الأمريكى الى المعسكر ... ورأى تلك المائدة التى تسد الباب ... والعامل الفلسطينى الى جانبها وقد أمسك بيده بالدجاجة ... وهى تصيح ... وتحاول أن تفلت من يده ... سأل مدير المعسكر العربى الذى كان يقف الى جانبه ، وهو يرتعش من الغضب :

– ما هذا ... ؟

وألجم مدير المعسكر ... فى الوقت الذى تقدم منه العامل الفلسطينى وقال :

– على هذه المائدة يا سيدى الطعام اليومى الذى يصرف للدجاجة ... التى أصبح اسمها عندكم المهاجر الفلسطينى .. !!

***

غير أن برنامج ابادة « الهندى الأحمر الفلسطينى » فى معسكرات اعتقاله الجديدة فى قطاع غزة ، والتى كانت تشرف عليها وكالة الاغاثة لم تكن تأخذ صور المظاهر التقليدية وأشكالها للابادة ... لقد كانت معسكرات اللاجئين فى الظروف المادية والنفسية التى وضعت الوكالة فيها طوابير اللاجئين ، تشبه الى حد بعيد معسكرات الاعتقال النازية فى بوخنوالد وأوشفتز وغيرهما ... ولكنها كانت بلا أفران للحرق المباشر للمعتقلين ... فلقد كان المهاجرون فى المعسكرات يحرقون على نار هادئة ... وفوق نيران بوتاغازات جديدة كان لهبها يسير فى خطوط متوازية مع الخطوط

الهنـــدسية لتجويع اللاجئين وتعريتهم وتقـديمهم طعاما للأمطار والطوفانات فى كل شتاء ... كما كان قياصرة روما القديمة يقدمون المسيحيين طعـاما للوحوش فوق الحلبـة ... كانت أفران الحرق الجديدة فى معسكرات اللاجئين ... تستهدف تنفيذ حكم الاعدام على كل ما يربط الفلسطينى المهاجر بالمدينة التى هاجر منها ... وبالوطن الذى ينتمى اليه ... وبتلك الكلمة التى اسمها فلسطين ... كانت أفران الحرق تستهدف حرق تاريخ فلسطين وثقافتها وكل تضاريسها الطبيعية فوق المصورات الجغرافية ... كان الهـدف فى كلمة هو ذاكرة الطفل الفلسطينى ؛ سواء الذى ولد مباشرة أيام الرحيـل وحمل فى أقماطه الى المعسكرات .... أو الذى ولد فى المعسكرات ... لكن هذه المؤامرة كانت تواجه بالنسبة الى مهندسى أفران حرق الذاكرة لأطفال اللاجئين الفلسطينيين مشكلة طوابير المدرسين الموجودين فى المعسكرات ... الأمر الذى لا يعطيهـا الفرصة لتقول : « لا يوجد من يقوم بتدريس كل هؤلاء الأطفال » فاذا كان بامكان مهنـدسى برنامج حرق الذاكرة أن يقولوا ... وبالذات فى مرحلة اشراف رجال الكويكرز على معسكرات اللاجئين ان امكانياتهم المالية تحول دون بناء المدارس ... وحتى دون تقديم المواد الأولية الضرورية كالكتاب واللوح الأسود والقلم والكراسة وأصبع الطباشير ... فلم يكن بامكانهم أن يقولوا ... انه لايوجد مدرسون فى المعسكرات ... وكانت صورة غريبة بالفعل ... صورة الفصل المدرسى فى هذا المعسكر أو ذاك ... تحولت مقاعد الأطفال الى أحجار واللوح الأسود أصبح لوحا من صندوق خشب طلى باللون الأسود ... وأصبع الطباشير ... كان قطعة من أحجار (الشيد) وكان الأطفال يتعلمون الحروف الأولى ... وفى الهواء الطلق ... وعلى هـــذا الوضع ... وبالطبع فقد كانت الاجازة السنوية لهذا النوع الجديد من المدارس فى مرحلة الكويكرز

تتم فى الشتاء ... !!! أما وضع المدرسين لهؤلاء الأطفال فلقد كان أشد غرابة ... فرجال الكويكرز لا يستطيعون أن يصدوا المدرسين عن تعليم الأطفـال ، حتى وهم فوق الأحجار ... ولكن كان فى استطاعتهم أن يفعلوا شيئا آخر ... لكى يرغموا هؤلاء المدرسين على الهجرة من المعسكرات ... ومن القطاع كله ... هذا الشيء الآخر أخذ شكل المرتبات التى تدفع لهؤلاء المدرسين ... حينما تحولت رواتبهم فى نهـاية الشـهر الى كيلو جرامات من البصـل والسـمك المقـدد ... وبعض المعلبـات ... وقبـل المدرسون الفلسطينيون هذا الشكل الجديد من المرتبات التى فرضها عليهم الكويكرز ... وانطلق هؤلاء المدرسون ... انطلقت هذه الكتيبة المقاتلة بأصابع الطباشير تسجل فوق الألواح السوداء المنتزعة من الصناديق الخشبية ... انطلقت تسجل أول انتصار تحرزه طوابير المعسكرات على الأفران الجديدة التى أقامها النازيون الجـدد لحرق أطفال المعسكرات ... هذا الجيل الذى يقف اليوم فى رائعة النهار ... فى وسط شارع عمر المختار ... أو فى سوق « فراس » ... أو على أطراف معسكراته ... يرجم بقنابله اليدوية وجوه جنود الاحتلال وعرباته العسكرية ...

***

حينما لم يعد بامكان الكويكرز أن تواصل تنفيذ برامجهـا المخططة ... وفى هذه الظروف البالغة الكشف والافتضاح ... كان على رجال الكويكرز أن يقوموا بتسليم أوراق اعتمادهم لبـلاد جديدة ... يأخذ ما أمكن ، شكلا رسميا عالميا معترفا به ... تقوم الولايات المتحدة الأمريكية بالاشراف المباشر عليه من خلال أجهزته ... حيث يأخذ شكل الابادة الفردية والجماعية للاجئين ... وفى

ـ الأفضل أن ترحلوا فى اللوريات التى أعددناها لكم ... بدل ان ترحلوا على أقدامكم ...

***

... وكان رد اللاجئين على الرجـل ذى العينين الزجاجيتين الزرقاوين .. هو اضرام النيران فى تلك اللوريات المطلية باللون الأزرق والتى أعدت لترحيلهم .

... وأصبحت راحــة كف الفلاح
الفلســطينى ... هى قطعـة الأرض
الوحيدة التى يملكها ... وكان عليه
أن يشقها بالمحراث ... وأن يلقى فى
أخاديدها ببذور القمح ... وينتظر
بعد ذلك سقوط المطر... وأن تعطى
راحة الكف السنابل ...

ان تعاسة الفلاح الذى تغوص شرايينه فى أعماق الأرض ، لا تعادلها أية تعاسة ··· حينما يسقط المطر ، وقطعة الأرض الوحيدة التى أصبح يملكها ··· هى راحة كفه ··· وكان الفلاح الفلسطينى المهاجر من قرى الجنوب ، والذى أصبح الآن ـ عددا ذا ستة أرقام فى بطاقة اللاجىء الزرقاء ـ يبسط كفه للمطر ··· وتملأ راحتها قطراته ··· كان الفلاح الفلسطينى يبسط راحة كفه للمطر وهو يعلم تماما ان راحة الكف لا يمكن أن تحرث ولا يمكن أن تلقى فيها البذور ··· ولا يمكن أن ترتفع منها عيدان الذرة او القمح ··· هذا هو كل ما كان يملكه : راحة الكف ··· واذا كانت راحة الكف ··· هى قطعة الأرض الوحيدة التى أبقاها الاحتلال للاجىء الفلسطينى ··· فلقد كان على الفلاح الفلسطينى أن يقدم الجواب لطفله الذى ترعرع فى المعسكر ··· أن يقدم الجواب لعينى طفله الباكيتين ··· حينما جاء يسأله ذات يوم ··· عن ذلك الشىء الذى يسمونه : أصبع الموز ··· ! لقد طلب مدرسه منه أن يرسم أصبع موز ··· وهو لم ير أصبع موز فى حياته··· من حق الطفل الذى ولد فى معسكر البريج والنصيرات أن يسأل عن شكل أصبع الموز ، ومن مسئولية والده أن يجيبه ، وبالذات اذا ما كان الأب يملك بضع شجرات من الموز فوق أرضه القديمة

الاسرائيليون برصاصهم ·· ويظل يتحامل على نفسه حتى يسقط على وجهه فوق الأسلاك ··· وتتدلى حزمة السنابل من يده ··· عنـدها كان أحـد القناصة الاسرائيليين ينطلق من مكمنه ··· لينتزع حزمة السنابل من يد الفلاح الفلسطينى ··· ويعود بهـا ··· وفى ملف رجال الهـدنة على الحـدود ··· يمنح الفـلاح الفلسطينى القتيل ·· صاحب الأرض ·· لقب « متسلل » ـ اللقب نفسه الذى تمنحه الاذاعة الاسرائيلية حينما تذيع نبأ مصرع فلاح فلسطينى ··· !!!

***

اذا ابتعدنا قليلا عن المعسكرات الوسطى للاجئين فى قطاع غزة ··· واقتربنا من بحر غزة ··· إلى معسكر الشاطىء ··· حيث اختار بحارة ميناء يافا وصيادوها الرمال المطلة على البحر ، أرضا لمنفاهم الجديد ·· فالصـورة هى نفسـها مع اختلاف أداة الجريمة وأسلوب تنفيذها ، والمكان الذى ارتكبت فيه ···

··· وكما حدد الاحتلال الاسرائيلى الأرض التى امتلكها بقوة الغصب ، بسونكى البنـدقية وبقنبلة « الهـاون والمورتر » وزرع الأسلاك الشائكة حولها ··· فلم تكن صـورة البحر تختلف عن صورة الأرض ··· فالبحر أيضـا ـ الذى لم يعرف له البحـار والصياد الفلسطينى حدودا من قبل ··· قد أصبحت له حدوده هو الآخر ··· وبدل الأسلاك التى تزرع فى الأرض ··· كانت الزوارق الاسرائيلية المسلحة ··· تحل محل الأسـلاك الشائكة

بطوافها فى البحر ··· وبالجنزير الذى تضربه حوله ··· وعلى بعد ثلاثة أو أربعة كيلو مترات من ميناء غزة ·

* * *

البحارة والصيادون فى معسكر الشاطىء بغزة ··· لايزالون يذكرون ذلك الصباح فى ذلك اليوم ، الذى قذفت فيه أمواج البحر بجثث ثلاثة من الصيادين من معسكر الشاطىء ··· كان الصيادون الثلاثة قد لفوا بالشباك التى حملوها معهم ··· كفنهم رجال الزوارق الاسرائيلية بشباكهم ··· مع أعشاب البحر والأسماك التى اصطادوها ··· بعد أن قتلوهم ··· وحشوا فم كل صياد بسمكة ··· ثم قذفوهم وهم ملفوفون بشباكهم الى البحر ··· لتحملهم الأمواج الى الشاطىء ··· وليكون فى مصرعهم ··· وعلى هذه الصورة··· ذلك الدرس لبقية الصيادين···حتى لايتجاوزوا بزوارق صيدهم تلك المنطقة من البحر التى حرمها محتل أرضهم وبحرهم عليهم ···

***

نسر « دستويفسكى » فى كتابه « يوميات بيت الموتى » ··· التقطه المسجونون من الجبل بعد أن التوى جناحه ··· وتسللوا به الى عنبر السجن ، وعبثا حاولوا أن يرغموه على أن يمد منقاره الى أكفهم ··· ليلتقط الخبز واللحم ··· وكان نسر « دستويفسكى » كان ينتظر من أحدهم أن يضمد جناحه ويطلقه ··· ما أقرب وجه الشبه بين اللاجىء الفلسطينى فى معسكرات غزة ·· وذلك

النسر ، الذى لم يعد أمام الاحتلال الاسرائيلى من وسيلة لابقائه فى عنبر المعسكرات وارغامه على انتظار الموت ... وجناحه الى الحائط ... غير أن يقوم بذبحه ... وهكذا وقفت غزة ... المدينة ... وغزة المعسكر ... وقفت لتواجه بجناحها المكسور ، عدوان عام ١٩٥٦ واحتلاله ...

... وأخـــرجوا ذلك المنـــــاضل الفلسطينى من زنزانته ... وقادوه الى اسطبل الخيل ، وأمروه أن يلطخ قدميه بذلك الوحـــل ... ثم أمروه بالركض بعـــد ذلك تحت ضربات الكرابيج ... حتى بلغ عتبة الزنزانة ... وطلب السجان الاسرائيلى منه ، أن يدوس بقدميه على المنشورات التى كان يوزعهـا ... وانغرســت قدما المناضــل كجذرى شجرة فى عتبـة الزنزانة ... حتى سقط على عتبــة الزنزانة ... رأســـه وذراعـاه تحتضنان منشوراته، وقدماه الموحلتان ... لوجه الاحتلال ...

سقراط أو أفلاطون فى القرن العشرين ... موشى دايان .. بأن عليه أن يقرأ ... سيرة من سبقوه من الطغاة الحيوانات ، الذين فقدوا ذاكرتهم ... ورفضوا الاستفادة من تجارب الحيوانات الآخرين ... من الصعب على أى عالم نفسى ، أن يطلب من موشى دايان ... أو غيره من « طاقم » المؤسسة العسكرية الاسرائيلية ، أن يتمدد فوق سرير مريح ... وأن يتكلم عن نفسه ... وعن ذكرياته .. وأن يدلى باعترافه لانقاذ روحه وجسده ... وكما تكمن قوة الوحش فى أنيابه ومخالبه وعضلاته ... فقوة الطاغية هو الآخر ... تكمن فى عضلات حديد دباباته ... وأجنحة طائراته ... وحدوات الفولاذ فى كعوب أحذية جنوده ...

ان الاسرائيلى العسكرى ، لا يمكن أن يدلى لأى كاهن فى العالم باعترافه الخاص ... فالكاهن الوحيد الذى تعترف المؤسسة الاسرائيلية الحاكمة به ... هو البندقية ... انه لا يستطيع ... وليس فى مقدوره أن يفهم أبدا أن لحم الانسان الذى يقاتل دفاعا عن وجوده وحقه يمكن أن يكون أصلب من حديد جنازير الدبابة ... التى يدفعها أمامه للغزو ... وللعدوان ... كما لا يمكن أن يفهم أبدا ... وأن يدرك ... حتى ولو قلب أوراق معسكرات الاعتقال النازية ـ التى ورث ملفاتها عن آبائه غير الشرعيين ، والشرعيين فى الوقت نفسه ... النازيين ... أن يدرك وأن يفهم أنه قد كان هنالك فى العالم ... كاتب أمريكى يدعى « جاك لندن » ... وان ذلك الكاتب الأمريكى ... حينما أرخ لصراع الانسان الجائع ضد ذئب جائع ... لم يكن فى مقدوره الا أن يقف الى جانب الانسان ضد الذئب ... وأن ينتصر فى نهاية المطاف ... ساعد الانسان ... وأصابع كفه الخمسة على مخالب الوحش ... وأصابعه التى قد تتجاوز المائة أو الألف ...

ولأن الطاغية ـ الحيوان ـ لا يمكن أن يفهم هذا ، فموشى دايان لم يكن أكثر هياجا وغضبا فى أى يوم مضى ، منه فى ذلك اليوم الذى راح يقرأ فيه أوراق ذلك الملف ... الذى تضم أوراقه ، أول قضية ينظرها قضاء الاحتلال الاسرائيلى العسكرى فى احتلال عام ١٩٥٦ ... وضد مواطن فى غزة ، ألقى القبض عليه ، وهو يوزع منشورات المقاومة الشعبية ويلصقها فوق الجدران ...

... لقد أمسكوا به ... بذلك المناضل الفلسطينى ... أمسكوا به وهو يلصق منشورات المقاومة الشعبية فوق الجدران ... وكانت فرصة للاحتلال ـ الذى كان يحلم بتقديم صورة مرتعشة للمناضل الفلسطينى ـ صورة الفلسطينى الذى يلقى القبض عليه ... وكيف يتصرف فى مواجهة من ألقوا القبض عليه ... كان الاحتلال الاسرائيلى لعام ١٩٥٦ ، يريد أن يقدم صورة ذلك المناضل ... وفى الاطار الذى أراد أن يضع فيه ـ قطاع غزة ـ صورة المدينة التى تلطخ قدميها بالوحل ... وتدوس على الشىء الذى يطلب منها أن تدوس فوقه ...

... فى ذلك اليوم ... حينما فتح باب الزنزانة ، على ذلك المناضل الفلسطينى ، لم يطلب منه غير شىء واحد ... وكان هذا الشىء هو أن يدوس ذلك المناضل بقدميه فوق المنشورات التى كان يقوم بتوزيعها ... والتى فرشت فى أرض زنزانته ...

... وانتظر المصور الاسرائيلى طويلا ... والكاميرا فى يده ... أن يرى قدمى ذلك المناضل الموحلتين وهما تدوسان المنشورات ... لقد كان ذلك المصور ينتظر ... وكان موشى دايان ينتظر أيضا ...

ولقد طال فى ذلك اليوم انتظار موشى دايان وانتظار ذلك السجان على باب الزنزانة ... فلقد وقف المناضل على العتبة .. وأمامه وعلى أرض الزنزانة ... فرشت المنشورات التى كان يوزعها ضد الاحتلال الاسرائيلى ... وانهال سوط السجان المصنوع من أسلاك التليفون فوق رأسه وصدره .. لكى يدفع بقدميه الى أمام ... وانغرست قدما ذلك المناضل كحجرين ، كجذرى شجرة فى باب الزنزانة ... لم يكن بامكان ذلك المقاتل ... الا أن يسقط دفاعا عن الكلمة التى كان يقوم بتوزيعها ... حتى ترنح وتهاوى وانطرح فوق باب الزنزانة ... ذراعاه تطوقان المنشورات .. وتحتضنانها ... وقدماه فى الممر .. ورأس المقاتل لكلمته ... وقدمه للمحتل ...

...ولف المحتلون الاسرائيليون...
قاعدة تمثال الجندى المجهول بحبال
الديناميت ... وتطاير التمثال
شظايا وأشلاء هنا وهناك ... وفى
الصباح،وحينما جاء الحاكم العسكرى
الاسرائيلى ... لكى يتفرج على أشلاء
التمثال ... كانت غزة قد أخفت
الأشلاء فى صدرها ... وبدأت حملة
التفتيش الغريبة فى بيوت غزة ...
بحثا عن أشلاء تمثال : الجندى
المجهول ...

في الساحة الكبيرة ··· وفي مواجهة المجلس التشريعي في مدينة غزة ، كان يرتفع النصب التذكاري للجنـدى المجهول ··· وكان وجهـه المنحـوت من الصـخر الأبيض ··· ومدفعه الرشاش الصغير يشيران الى الحدود ··· الى ذلك اليوم الذى يهبط فيه ذلك الجندى المجهول من قاعدته الحجرية ··· وقد دبت الحياة فى الصخر ··· وجرى البارود فى الشرايين جريان الدم ··· ليقول كلمته للأرض التي ترتمي هنـاك ··· خلف الأسـلاك الشـائكة مثخنة بالجراح ···

··· وفى اللحظات الأولى للاحتلال ، كان هنـاك ثلاثة جنـود اسرائليين وضابطهم يلفون أصابع الديناميت حول قاعدة التمثال ، لقد أصدر الاحتلال الاسرائيلى حكم الاعدام على التمثال ··· وتطايرت أشلاء الجندى المجهول ··· وتناثرت حول القاعدة ··· وعاد الجنود الاسرائيليون الثلاثة ··· مع ضابطهم ··· الى قاعدتهم بعـد أن نفضوا أيديهم من غبار التمثال الذى أطاحوا به ···

***

··· وفى صـباح ذلك اليـوم ··· جاء الحاكم العسـكرى الاسرائيلى لقطاع غزة ··· هو وبعض ضباطه ليتفرج على أشـلاء تمثال الجندى المجهول ··· كان الحاكم الاسرائيلى ··· وهو ينطلق الى القاعدة ··· يسترجع كلمات ذلك النازى الذى كان يقول : اذا أردت أن تقتل شعبا فعليك أولا بقتل الرمز الذى يحبه ويرتبط

به ··· عليك بقتل كل ما يشده روحيا الى القتال ··· عليك بقتل تاريخه ··· وذاكرته ··· ورموزه ··· ثم عليك به بعد ذلك ···

··· وحينما بلغ الضابط الاسرائيلى الحاكم قاعدة التمثال المنسوف ··· هو وضباطه ··· فوجىء بشىء لم يخطر له على بال ··· كانت قاعدة التمثال المحطمة قد غطيت بالزهور ··· وكان كل ما حول القاعدة المنسوفة ـ المغطاة بالزهور ـ نظيفا تماما ··· كأن هناك من قام بكنسها ··· وأفظع من هذا كله ـ بالنسبة للحاكم الاسرائيلى وضباطه ـ أن كل أشلاء تمثال الجندى المجهول قد اختفت ·· لم يكن هناك حول القاعدة أى حجر صغير تطاير من التمثال···

وفى حمى الصرع ··· أصدر الحاكم الاسرائيلى أمره بتفتيش كل البيوت المحيطة بالتمثال ··· وعلى الشارعين الرئيسيين المحيطين به ··· واللذين يشقهما شريط الأسفلت الذى يقود الى البحر ··· وكان أمر التفتيش غريبا وعجيبا هذه المرة ··· فهو لم يكن البحث عن منشورات المقاومة ··· أو آلات الرونيو التى كانت تستخدمها ، لم يكن أمر التفتيش يتعلق بالبحث عن بندقية أو قنبلة يدوية كان أمر التفتيش يستهدف فقط البحث عن الشظايا وقطع الحجر التى اختفت من حول قاعدة التمثال ···

··· وبدأ الجنود الاسرائيليون حملتهم التفتيشية عن شظايا التمثال ··· فى بيوت منطقة الرمال بغزة ··· التى نهضت قبل الخيوط الأولى للفجر ··· الى قاعدة التمثال ··· تجمع الأشلاء المتطايرة ··· وتتقاسم بيوتها الأشلاء ··· تخفيها فى صدرها ··· من أجل أن تعود ذات يوم لتجمع ثانية أشلاء ذلك المقاتل المجهول··· لكى يواصل سيرته ضده الاحتلال ···

***

لقد بدأ تكتيك « الرعب الجماعى » ··· بدأ خبراء الرعب العسكريون الاسرائيليون يقلبون أوراق ملف الآب الروحى لهم ··· النازى أدولف هيسنجر ··· أحـــد مهندسى استراتيجية الرعب النازية ···

وكان لابد لخبراء الرعب الاسرائيليـين أن يعثروا على تلك الكراسة الرمادية التى تشبه طوب أسوار المعتقلات النازية وحجراتها التى ضمنها أدولف هيسنجر كل تجاربه الدموية ·· فى اشاعة الرعب وتتويجه ملكا ··· يهز بيده صولجان الطاعون ···

··· وتبدأ الكراسة الرمادية لأدولف هيسنجر ··· بهـذا السؤال الذى يطرحه النازى هيسنجر :

ـ ما الرعب الذى نريده فى الأرض التى نحتلها ··· ؟ اقامة معسكرات اعتقال ··· ؟ ان هذا ضرورى جدا ، ولكننا لا نستطيع أن نحول كل جنودنا الى سجانين يقفون أمام الأبواب وتحت النوافذ فى المدن المحتلة ···

··· ويمضى هيسنجر ··· يجيب على السؤال الذى طرحه : ما الرعب ··· ؟ بقوله :

ـ ان الرعب بالنسبة للمدينة التى نحتلها ··· يجب أن يأخذ شكل قطرات القصدير المصهورة التى تتساقط من سقف حجرة فوق رأس سجين يقف فى منتصفها ···

ولقد كانت أية مدينة محتلة هى السجين الذى تتساقط قطرات القصدير المصهورة فوق رأسه بالنسبة للنازى هيسنجر · أما بالنسبة « لبن كنعان » المسئول عن تطبيق كراسة الرعب الرمادية لهيسنجر، فلقد كان السجين هو « غزة » ·· وعليها أن تعاقب بقصدير الرعب المصهور ···

... وبدأ احتلال عام ١٩٥٦ ، يسترجع ذكرياته عن الاحتلال الأول لفلسطين عام ١٩٤٨ ... وبدأ يقلب فى يده – أوراق اللعبة القديمة – وكان معسكر الشاطىء الذى أقيم على ربوات رمال شاطىء غزة ... هو هدف اللعبة القديمة الجديدة ... التى تبدأ بورقة واحدة ، هى اغتصاب امرأة .. ثم بورقتين .. اغتصاب امرأتين ... ثم تتوالى الأوراق .. وتتوالى عمليات الاغتصاب ، وكان فى تقدير « بن كنعان » وغيره من الضباط الاسرائيليين الذين رسموا معه تاكتيك « اغتصاب النساء » ... لاشاعة الرعب في المعسكر وحمله على الرحيل ... كما كان يحدث أيام اجتياح الهكسوس الاسرائيليين للقرى والمدن فى عدوان احتلال عام ١٩٤٨ .

غير أن الاحتلال الاسرائيلى قد أسقط من حسابه شيئا يسيرا واحدا لم يفطن اليه...هذا الشىء اليسير الذى تعلمه الفلسطينيون فى معسكراتهم فى قطاع غزة والذى دفعوا ثمنه حتى عدوان عام ١٩٥٦ ، سبع سنوات ... ولقد عرف الفلسطينيون فى المعسكرات – وخلال هذه السنوات السبع – ألا يفصلوا أبدا بين « عرضهم » ... وعرض أرضهم .. بحيث لا ينجو الواحد منهم « بعرضه الخاص » ويترك .. المحتلون الاسرائيليون يهتكون عرض الأرض...

وفى منتصف ليلة من ليالى الشهر الثانى من الاحتلال ... بدأت حملة الاغتصاب الأولى ضد معسكر الشاطىء ... حينما اقتحمت دورية اسرائيلية أحد بيوت اللاجئين فى أطراف المعسكر .. وما ان أصبح جنود الدورية فى ساحة البيت ... حتى فوجئوا بالأطفال فى البيت ، بالمرأة وبالرجل ... وهم يدقون بالأغصان على صفائح البنزين الفارغة .. وما ان ارتفع الدوى من ذلك البيت المهاجم... الذى تحولت صفيحة البنزين فيه الى طبلة ... حتى انطلق يجاوبه من البيوت المجاورة دقات أخرى على الصفائح ... وما لبث الدوى

أن عم وانتشر فى المعسكر كله ... وعلى الدوى خرج سكان المعسكر .. خرج المعسكر كله بشيوخه ورجاله وأطفاله وشبابه ونسائه ... وانطلقوا الى البيت الذى اقتحمته الدورية الاسرائيليـة التى ما أسرع ما ركنت للفرار ....

***

لقد أصبحت صفائح البنزين الفارغة طبول الانذار التى يقرعها البيت المهاجم من قبل دوريات الاغتصاب الاسرائيلية ... وبهـذا الأسلوب البدائى من أساليب المقاومة ... كان معسكر الشاطىء فى غزة يواجه الدوريات الاسرائيلية ...

***

... كان يوما حزينا باكيا ... من أيام غزة ... حينما خرجت فى ذلك الصباح ... تودع المواطنين المصريين الذين جمعتهم سلطات الاحتلال تمهيدا لترحيلهم الى معتقلات عتليت الاسرائيلية .. ورغم الجنزير المضروب من جنود الاحتلال حول الأسلاك الشائكة المضروبة حول الموظفين المصريين ورجال الادارة فى القطاع ... فقد اخترق رجال غزة ونساؤها وأطفالها ... الجنزير المضروب ... وراحوا يلقون من فوقه بما حملوه فى أيديهم من حزم الطعام ... الملفوفة فى المناديل وأوراق الجرائد ... راحوا يلقون بتلك الحزم وبعلب السجائر والكبريت وقطع الصابون ... وبكل ما استطاعوا جمعه ... من بيوتهم ... ومن دكاكينهم ... وكأن كل أصواتهم قد تجمعت فى تلك اللحظة فى حنجرة واحدة ... كانت صيحتها تقول : **الى اللقاء .. فوق أرض غزة ...**

***

... الأمطار التى سقطت ... ومع الخيوط الأولى لصـباح ذلك اليوم ... لم تشهدها غزة من قبل ، وهى مدينة الأمطار ...

والبروق التى لمعت فى سمائها ... كانت تشبه الصواريخ الملونة التى تنطلق فى يوم من أيام عيد وطنى ... بينما راحت الرعود تقصف مختلطة بدوى الانفجارات التى أخذت تهز نوافذ المدينة... كانت الطبيعة تخرج هى الأخرى كل ما خزنته فى صدرها من المطر والبرق والرعد ... لتسهم مع المدينة المحتلة فى جلاء المحتل الاسرائيلى عن أرضها ... وكأن الأمطار التى راحت تتساقط فى ذلك اليوم ... كانت تغسل من شوارع غزة ومن فوق أرضها بصمات الكعوب الحديدية للاحتلال وآثارها .

... وخرج الناس يتعانقون تحت الأمطار ، وأصبح قطاع غزة بقراه وبمعسكراته وبمدارسه فى شوارع مدينة غزة ... وفى الصباح الأول ... الذى تستيقظ فيه وتسير طليقة فى شوارعها التى استعادتها ثانية من أيدى المحتلين ...

... كانت جراح المدينة تنزف ... ولكن ابتسامتها فى ذلك اليوم ... كانت أكبر من جراحها ... وأكثر اشراقا ... فلا أحد يستطيع أن يصف فرحة مدينة ... تحررت بدمها ... غير المدينة نفسها التى جرى من صدرها ومن جبينها ... خيط الدم الأول ... الذى التقى بغيره من خيوط الدم ... لكى ينسج الراية التى ترفع فى السارية ...

... لقد تخطت غزة فى صباح ذلك اليوم ، مأساتها الذاتية والثمن الفادح الذى دفعته ... ثمنا لجلاء المحتل ... وثمنا للحرية ...

... لقد كانت غزة تعرف وحدها الثمن الذى دفعته ... ذلك الثمن الذى لا يستطيع أحد أن يعوضها عن فقده ... حتى حينما كانت فئوس بعض رجالها تضرب الأرض برفق على مسافة كيلو مترات من محطة غزة ... ولم يكن ذلك البعض من رجال غزة

... ينقبون أفى ذلك اليوم عن كنز مدفون ... أو عن آثار ... كانوا ينقبون عن كنز جديد ... هو أبناؤهم الذين دفنهم الاحتلال وهم أحياء ...

... بدأت الجثث تطل برءوسها من تحت أكوام التراب ... وكانت الأرض الطيبة ... وكأن التراب الطيب ... قد أراد هو الآخر أن يلعب دورا فى المعركة ضد الاحتلال ... فاحتفظ بأقصى ما يمكن أن تحتفظ به الأرض ... من ملامح وجوه الشهداء وقسماتهم ... الذين دفنوا وهم أحياء ... وكأن تراب الأرض الطيبة كان يريد هو الآخر أن يقدم وجوه من دفنوا فيه ... للوطن العربى وللعالم أيضا ...

... كانت الأرض تقدم البطاقات الشخصية لشهدائها ...

...كانت تقارير المخابرات الاسرائيلية الحربية ... السرية والخاصة جدا ... والتى قدمتها لرئاسة القوات الدولية تقول : بأن غزة سترحب بعلم التدويل يرتفع على ساريتها... وسقط محمد على المشرف، والرصاص يثقب صدره بعد أن أسقط علم القوات الدولية من السارية ... وهو يلوح للجماهير المحتشدة بالعلمين الفلسطينى والمصرى ...

... ومع كل فقد كانت غزة تحتفل بجلاء الاحتلال عن أراضيها ... كانت تحتفل مع قطرة المطر، وومضة البرق، وصيحة الرعد ... ولم تكن غزة تتحسس جسدها فى ذلك الصباح ... بل كل تتحسس روحها ...

... المدينة التى تطعن ثم تسرق ... لا تضع يدها على جيبها .. بل تضع يدها كالضمادة فوق الجرح ... ولقد سرقت غزة ... حتى الجلد ... سرقت بيتا بيتا وشارعا شارعا، وظلت اللوريات الاسرائيلية المغطاة ... ولأكثر من أسبوع ... قبل الانسحاب ... تنقل كل ما يمكن أن يبقى المدينة عريانة لشهور ولسنوات أيضا ... الثلاجة والبوتاجاز ... واللمبات الكهربائية ... والراديو ... والبانيو ... والأسلاك الكهربائية ... والنجف ... والبلاط ومواسير المياه ... وقطع الأثاث وقطع غيار السيارات بأنواعها ... واطارات السيارات ... والبطاطين ... وحتى القرطاسية من مكاتب ادارة الحاكم الادارى العام للقطاع ... حتى المناضد والكراسى ... لقد كانت حملة همجية تم خلالها فى الأيام الأخيرة للانسحاب تجريد غزة وتعريتها من كل ثيابها ... بعد أن انتزع جنود الاحتلال - وطيلة تلك الأيام السوداء : كل ما يمكن أن يملكه الرجل والمرأة فى غزة ...

الانسان الذى لم يستطع الاحتلال أن يسرق روحه ... راح يجرده من معطفه وحافظة نقوده...وساعة يده...هذه المدينة التى

لم تضمد جراحها بعد ، فما تزال ترشح ، ولم تدفن قتلاها بعد... فما زالوا مبعثرين هنا وهناك ، مع مئات الأبناء المفقودين الذى لا يعرف مكان اقامتهم فى معسكرات اعتقال الاحتلال ... هـذه المدينة ... كان عليها أن تقف ضد المؤامرة الجديدة ... لتدويل قطاع غزة ... الاحتلال الاسرائيلى الذى خرج من بوابة غزة ، ترك النافذة مفتوحة لمؤامرة تدويل غزة ، وبهذا يصبح آخر جزء من الأرض العربية ... والذى يحمل اسم فلسطين ـ منطقة تحكمها وتديرها القوات الدولية ...

... ولكن غزة ، لم تقدم صدور أبنائها لرصاص المحتلين ، ولم تقدم معاصمهم لقيود السجانين الاسرائيليين ، لكى تستبدل بعلم الاحتـــلال الاسرائيلى ، علم التدويل ... كانت غـزة تدرك مسئوليتها تماما وهى تحمل فى يدها آخر خيـوط العلم العـربى الفلسطينى ... وتقف فى خط الدفاع والقتال الأخير ... وظهرها لأمواج البحر وصدرها للأسلاك الشائكة للعدو ... كانت القوات الدولية تجوب دورياتها المسلحة الشوارع ... وقد أخذت مواقعها فى قلبهـا وأطرافهـا ... وفى مختلف أرجاء القطـــاع كله ... وكانت القيادة العسـكرية ... للقوات الدوليـة ... قد بدأت اتصـــالاتها منـذ اليوم الأول بكل الوجوه السـياسية البارزة فى القطاع ، فى محاولات دائبة ويائسة لاقناع تلك الوجوه السياسية فى غزة ... بتدويل القطاع ... ولكن غزة عام ١٩٥٦ قد أصبحت تحكمها الجماهير ـ فى الشوارع ـ وهى التى انتزعت مفتاح غزة ... من تحت جنازير الدبابة الاسرائيلية ... ولم يعد يحكمها هذا الوجه السياسى التقليدى أو ذاك ...

... وبدأت رائحة المؤامرة تفوح وتختلط بدخان البارود الذى كان ينطق من فوهات بنادق قوات التدويل ... وهى تئز

فى الشوارع ... وبلغ التجسيد للمؤامرة صورته النهائية ... حينما ارتفع علم القوات الدولية فى سارية المبنى الرئيسى لادارة الحاكم الادارى العام لقطاع غزة ...

... أخذت الجماهير تحتشد أمام مبنى الحاكم الادارى العام ... الذى تحول الى قيادة للقوات الدولية ... وكانت غابة من الأعلام الفلسطينية والمصرية ترتفع فوق الرءوس وتلوح بها أيدى الرجال والنساء ... وفى وسط هذه الأمواج المتلاطمة من الناس كان شاب نحيل يقف هو الآخر ، وفى يده يرفرف علمان ... الفلسطينى والمصرى ، أخذ الشاب يشق طريقه وسط تلك الأشجار المتلاصقة من الناس ... وعيناه قد انغرست كجناحى طائر فى علم التدويل الأزرق الذى كان يرتفع فى السارية فوق المبنى الرئيسى ... ولم يلحظ أحد ذلك الشاب الذى يشق طريقه... ولكن العيون مالبثت أن راحت تتركز كالمصابيح الكهربائية المضيئة فى رائعة النهار ... على ذلك الشاب وهو يعدو فوق سطح المبنى العام ... وهو يلوح بكلتا اليدين ... بالعلمين الفلسطينى ... والمصرى ... حتى بلغ السارية التى يرفرف فوقها علم القوات الدولية ... وبين هتاف الناس الذى راح يتكسر كالرعد ... وعيون الناس التى انطلقت من محاجرها ترفرف كأسراب الطيور فوق رأس ذلك الشاب ... وهو يسحب بيده الحبل الذى يرتفع فوقه العلم الدولى ، وفجأة انطلق الرصاص ... زخات متواصلة من الرصاص ... انطلقت من فوهات بنادق قوات الحراسة الدولية المحيطة بالمبنى ... والتى كانت تضرب جنزيرا من البنادق حول المتظاهرين ... وترنح الشاب وقد أخذ يلوح بالعلمين فى يده... وأخذ يتقدم خطوات من حافة المبنى ... ثم لم تسعفه قواه ... فتطوح وتهاوى على وجهه ... لقد كان أول شهيد يسقط بعد انسحاب المحتلين الاسرائيليين ... أول شهيد يسقط برصاص

القوات الدولية ، وكان اسم الشهيد : محمد على المشرف ... لقد غير الاحتلال ثوبه ... غير علمه ، ولكن البندقية التى تصوب للصدر ... هى هى ... والاصبع الذى يضغط على الزناد هو هو ... لم يتغير ...

... وكان سقوط محمد على المشرف فوق سطح المبنى ، بعد أن أسقط علم القوات الدولية من السارية ، اشارة البدء للجماهير لكى تقاتل بكل أسلحتها ... بالتظاهر ... بالمنشور ... باحتلال الشوارع ... بأصابع الطباشير أيضا ... التى راحت تكتب فوق جدران غزة وشوارعها ... اسم « جمال عبد الناصر » كدرع فوق الصدر لصيانة عروبة القطاع والاطاحة بمؤامرة التدويل ...

... فى ذلك الصباح ... ارتفع هتاف الجماهير الملتفة حول أجهزة الراديو ، تستمع لصوت القاهرة ... ارتفع هتافها وهى تصغى للقرار التاريخى الذى أصدره المناضل « جمال عبد الناصر » بعودة الادارة المصرية لقطاع غزة ... وبتعيينه للفريق أول محمد حسن عبد اللطيف حاكما اداريا عاما للقطاع ...

... وعلى أرض رفح الفلسطينية كانت الجماهير تنتظر ... سيارة الحاكم الادارى العام ... وتحولت أكتاف الجماهير الى جسر يمتد الى كيلو مترات ... وفوق هذا الجسر من اللحم والعظم ... وفوق هذا الجسر من أكتاف الرجال والنساء والشيوخ والأطفال... ارتفعت سيارة الفريق أول محمد حسن عبد اللطيف ... أول حاكم عربى مصرى للقطاع بعد انسحاب قوات الاحتلال الاسرائيلية ... وبعد الاطاحة بمؤامرة التدويل ...

... فى تلك الليلة رفع صحفى يوغسلافى صديق ... كان يرافق الجنود اليوغسلافيين ... الذين دخلوا القطاع مع القوات

الدوليــة ··· ولكنهم لم يكونوا يوزعون الرصــاص على صدور المتظاهرين ··· بل راحوا يحيونهم بالبنادق التى كانوا يلوحون بها ، وهم يصيحون وبعضهم كان يتكلم العربية الفصحى ···

« السلام عليكم ··· »

« السلام عليكم ··· »

الصحفى الصديق اليوغسلافى رفع كأسه فى تلك الليلة وقال :

ـ نخب غزة ···

وارتفعت الكئوس ··· وشربنا معهم ، شرابهم الوطنى ··· نخب غزة ··· الذى هو بمثابة الفودكا بالنسبة للأصدقاء الروس ··· والعرق بالنسبة لنا نحن العرب ـ لو صح التعبير ـ

كان الصحفى اليوغسلافى ، كمن لا تصدق عيناه ما يرى ··· ولم يكتم طويلا ما كان يدور فى صدره ··· وسرعان ما أفضى به ··· كانت التقارير السرية والخاصة جدا ··· لدى الرئاسة العليا للقوات الدولية ··· وبالذات التى راح يروج لها كبار الضباط الكنديين ··· ويحـاولون أن يقنعوا بهـا الضباط اليوغسلافيين والضباط الهنود ··· وقبل دخول القوات الدولية لقطاع غزة··· فى أعقاب انسحاب قوات الاحتلال الاسرائيلية ··· كانت التقارير السرية والخاصة جدا ، والتى قدمتها بالطبع رئاسة المخابرات الحربية الاسرائيلية كانت تلك التقارير تقول : ان القوات الدولية ستجد شوارع القطـاع مفروشة بالزهور لهم ··· وان جماهير القطـاع ستفتح أذرعها لمشروع التـدويل ··· وان عودة الادارة العربية المصرية لقطاع غزة ليس غير شعار يرفعه بعض المتعصبين الوطنيين ··· ذوى المصالح الخاصة ···

وحاولت أن أقدم للصـحفى اليوغسلافى الصـديق صورة بالأبيض والأسود عن القطاع ، وعن الهدف الاسرائيلى القابع وراء تلك التقارير ··· ولكن الصحفى اليوغسلافى الصديق قد كفانى عبء الشرح والتوضيح حينما قال :

ـ لقد رأيت بنفسى شهيدكم محمد على المشرف ، وهو يسقط ملوحا بيـديه بالعـلم الفلسطينى والعـلم المصرى ·· كنت الى جانب جندى كندى فى تلك اللحظة ··· وكان أحد الجنود الذين أطلقوا الرصاص على ذلك الشاب ··· كان يطلق الرصاص وهو يرتجف ···

وحينما انتهت المذبحة ··· سألته :

ـ لماذا كان يرتجف ···

وكان جوابه ··· انها المرة الأولى التى يقتل فيها ···

واستطرد الصحفى اليوغسلافى قائلا :

ـ لقد أتوا بهم ليتعلموا القتل فى بلادكم ··· انهم يدربونهم لكى يكتسبوا طبـاع سـمكة القرش ··· التى تتبع دائما خيط الدم ···

ـ نخب غزة ···

··· وشربنـا ··· وكان مذاق الخمر هذه المرة ، كمذاق الدم ···

***

···خبراء التكتيك والاستراتيجية العسكرية ، كانوا يقولون، وهم ينظرون الى خرائطهم ·· ويغرسون الدبابيس فى هذا الموقع ··

وينتزعونها من ذاك الموقع ·· الخبراء كانوا يقولون ، وهم يرون ظهر غزة الى أمواج البحر ·· وصدرها للأسلاك الشائكة ·· انهامدينة مفتوحة ·· لا يمكن الدفاع عنها ·· ولا يمكن اتخاذها قاعدة للهجوم

هكذا كانوا يقولون ··· !

··· أما خبراء الزراعة وخبراء الاقتصاد ··· فقد كانوا يقولون ، وهم يفركون بأيديهم حفنة من رمالها :

ـ ما الذى يمكن أن تقدمه الرمال لنصف مليون لاجىء ومواطن فى قطاع غزة ·· ؟ ما الذى يمكن أن يقدمه هذا الشريط الذى طوله ستة وأربعون كيلو مترا ··· وعرضه عشرة كيلو مترات ؟!

··· واذا كانت غزة قد قالت بعض الكلمات ··· بعض الذى كان عليها أن تقوله للخبراء العسكريين وهى المدينة التى بلا جبال ··· وبلا غابات ··· وبلا مستنقعات ··· وجعلت المقاومة الشعبية فوق أرضها ··· وجود الاحتلال الاسرائيلى أمرا بالغ الصعوبة ··· وباهظ التكاليف ··· وكل أسلحتها الورق والحبر ·· وآلة الرونيو ·· ونضال الشوارع ·· وعرقلة الحياة اليومية للاحتلال ·· ومقاطعته ·· اذا كان لدى غزة ما ترد به على أولئك الخبراء ·· أصحاب مفاهيم الغابات ·· والجبال ·· والمستنقعات ·· فلقد كان على غزة أيضا ·· أن تقول بعض الكلمات للذين يفركون رمالها بين أصابعهم ·· ويعلنونها مدينة من الرمل ·

***

لقد كان التحدى كبيرا بالنسبة الى غزة ·· والتحدى فى هذه المرة تقوم به الطبيعة ·· وليست القوة العسكرية ·· لقد غتصب الاحتلال ·· أكثر الأراضى خصوبة حول غزة ·· حاصرها

من البحر ، حيث لا يصلح ميناؤها ـ الذى لم يكن أكثر من لسان من الاسمنت المسلح ـ يمتد لمائة متر فى البحر ·· لا يصلح لرسو السفن الكبيرة ·· وحاصرها من القلب ·· وضرب الأسلاك الشائكه فى منتصف الصدر ·· وحال بينها وبين مثلثات ومربعات الخصب من أرضها ·· أما ذراعها اليسرى فلم تكن تمتد لأكثر من قرية بيت حانون ·· حيث يرفرف العلم الاسرائيلى على بعد بضعة من الأمتار ·· ولم يبق لغزة غير ذراعها اليمنى التى تمتد عبر صحراء سيناء لتصلها بالقاهرة ·· العاصمة العربية الوحيدة التى تصل غزة بالوطن العربى ·· وبالعالم الخارجى ·

***

··· فى عام ١٩٥٠ ـ أى بعد كارثة ١٩٤٨ بعامين ··· كان نظام الارهاب والسخرة والتجويع والبطالة ، الذى كان يفرضه الاحتلال الاسرائيلى على العمال الفلسطينيين العرب ·· الذين لم يرحلوا عن يافا ·· يدفع بعض العمال العرب للعمل فى بيارات البرتقال العربية التى أصبحت بحكم قانون الغصب والعدوان والجريمة ·· ملكا للاحتلال ·· كان على أحد العمال العرب من أهل يافا أن يلف حبات البرتقال الذهبية بتلك المناديل البيضاء الشفافة من الورق ، ويرصها فى الصناديق ·· لكى تنطلق بها السفن الاسرائيلية بعد ذلك من ميناء تل أبيب أو أسدود ·· لتصديرها للعالم الخارجى ··· تحمل اسم اسرائيل ·· لقد أصبحت الجريمة تصدر كالسلعة ·· أصبحت الجريمة فى شكل برتقالة مسروقة ·· تلف بالورق الأبيض الشفاف ·· وتعرض فى أسواق العالم كله ··

··· وكان على ذلك العامل الفلسطينى من يافا أن يعلن رفضه للجريمة ، وفى بيته انتزع من كراسة طفلة ورقة ·· وراح طويلا يفكر فى الكلمات التى عليه أن يكتبها ·· وأن ينتقيها كلمة كلمة ··

من قاموس لغته المحدودة .. وأخيرا أكب على الورقة وراح يكتب :
أنا لا أعرف من تكون .. وما هو اسمك أو جنسيتك .. أو المدينة التى تقيم فيها .. ولـكن هذه هى الوسيلة الوحيدة التى يمكننى أن أتصل بك .. هذه البرتقالة التى فى طبقك .. أو التى فى يد طفلك .. مسروقة .. من بيارة عربى فى يافا .. »

... وطوى العامل الفلسطينى العربى الورقة .. ووضعها فى جيبه .. وانطلق فى اللورى الذى حمله الى البيارة .. وفى خفية عن عيون الحـرس والمراقبـين الاسرائيليين الذين كانوا يحيطون بالعمال العرب فى البيارة .. أخرج العامل العربى .. الورقة من جيبه .. وتناول أول برتقالة ولفها بالورقة المكتوبة .. ووضعها فى قاع الصندوق .. ثم مضى بسرعة يتنـاول حبـات البرتقال ويلفها بمناديل الورق الشفافة البيضاء .. ويعبىء بهـا الصندوق .. وسرعان ما تناوله عامل عربى آخر قام باغلاقه .. ليحمله عامل عربى ثالث ، ويضعه فى أحد اللوريات .. تمهيدا لشحنه الى الميناء ..

***

... لا أحد يدرى الى أى سوق من أسواق العالم .. وفى أية مدينة قد فتح صندوق البرتقال الذى ترقد فى قاعة تلك البرتقالة الملفوفة برسالة العامل الفلسطينى .. ولا أحد يدرى .. هل لفتت نظر أحد تلك الكلمات المسطرة فوقها .. وهل استرعت انتباهه الكلمات الغريبة التى كتبت عليها .. اذا لم يكن يعرف العربية .. لا أحد يدرى .. ولـكن تلك السلالة التى انحدر منها ذلك العامل العربى كان عليها أن تكتب رسالة أخرى .. تلف بها برتقالة جديدة .. تنبت شجرتها فى غزة .. رسالة تقول للعالم : على الشـاطىء أيضا .. وقرب الموج .. يمكن أن تنبت الأشـجار .. ورغم هواء البحر المثقل بالملح .. وعلى امتداد شاطىء البحر .. من غزة حتى

بيت حانون ٠٠ وفوق وديان الرمال ومرتفعاتها ٠٠ وعلى مسافة مائة أو مائتى متر من البحر ٠٠ كان يمتد سياج طويل من سعف النخل ٠٠ كسد فى وجه هواء البحر المالح ٠٠ وخلف ذلك « الساتر » من سعف النخل ٠٠ كانت تتمايل شتلات أشجار البرتقال والليمون ٠٠ بسيقانها الرقيقة ٠٠ وأوراقها التى تشبه أكف الأطفال الصغيرة ٠٠ وأخذت الشجرة الطيبة تدفع بجذورها فى الأرض مليمترات ومليمترات ٠٠ والساق تكبر والأوراق تكبر ٠٠ والريح تهب فتطيح بسعف النخل ٠٠ واللوريات تحمل أكواما من السعف الجديد ٠٠ تزرع فى الأرض بدل السعف الذى تهاوى ٠٠ والتحدى الكبير ٠٠ ضد هواء البحر وضد أمواجه ٠٠ وضد ملوحة المياه فى الآبار ٠٠ يواصل سيرته حتى حدثت المعجزة أخيرا ٠٠ وأعطت الأشجار أزهارها البيضاء ٠٠ وكبرت الأزهار وتحولت الى ثمرات ليمون وبرتقال ٠٠

***

٠٠٠ كانت الشجرة تكبر ٠٠ وكانت غزة تكبر أيضا ٠٠ الطريق الرئيسى الذى كان شبه مهجور ٠٠ والذى يصل غزة بالبحر ٠٠ أصبحت النوافذ مفتوحة على جانبيه ٠٠ من البيوت الجديدة ٠٠ التى أخذت غزة تبنيها بسواعد أبنائها ٠٠ ألوف الفلسطينيين فى المهاجر العربية والأجنبية ٠٠ كانوا يستيقظون فى الصباح ويرددون قبل أن ينطلقوا الى عملهم :

« لتنسنى يمينى اذا نسيتك يا غزة ٠٠ »

كانت غزة بالنسبة لهم هى طوق النجاة الأخير ٠٠ كانت الأرض التى احتفظت ببكارتها وعنفوانها ٠٠ عبر التاريخ ٠٠ القديم والحديث ٠٠ كانت غزة بالنسبة لألوف المهاجرين الذين ترعرعوا فى معسكرات قطاع غزة ٠٠ هى الحبيبة التى لم تخلع أصبعها من الخاتم وتلقى به فى خوذة المحتل ٠٠ كانت الرمز كله لفلسطين المقبلة ٠٠٠

كان الشعار الذى يرفعونه ولم يعقدوا مؤتمرا لـكى يتفقوا عليه ..
بل جاء شعارا تلقائيا .. بل فرضته ظروف الهجرة والغربة والمنفى:
كن قريبا من وطنك .. وابن بيتا فى غزة ..

وتحول عرق المنفى وعـــذابات الغربة .. الى زجاج وأحجار وألواح خشب .. الى سقوف بيوت وأبواب ونوافذ .. وراحت رمال غزة على امتداد الجهات الأربع ترتفع فوقها البيوت الجديدة .. كانت غزة تزرع وتبنى بلا كلل..كانت تزرع وتبنى وهى على مرمى رصاص بنادق العدو .. وعلى مرمى قنابله اليدوية .. ومع ذلك فقد كان قدر غزة أن تزرع وتبنى .. ولم يكن هناك مفر من مواجهة ذلك القدر .. الذى تفرضه البندقية وحدها والمرتكزة على تلك القاعدة من الأسمنت المسلح .. خلف الأسلاك الشائكة للاحتلال ..

... في يوم لا يعرف فيه التائه
في الليل خلاصه ...
انطلقت يا فتح رصاصة ...
دمنا سال عرفنا ما هو لون الدم
أنسونا ما هو لون الدم
كنا لا نعرف هل في الشريان دماء
أم ماء ...
كنا نعرف كل الألوان ...
لون عيون رجال جوازات السفر ،
ولون الدينار ، ولون القائمة السوداء
الا لون الدم ...
والآن الدم سال عرفناه ،
وأمسكنا بالدم خيطا ...
فلننزف يا فتح ...
سنموت اذا ضمدنا الجرح ...

... كانت غزة تكبر .. وكانت شوارعها تكبر أيضا .. وقد أخطأ الكثيرون حينما كانوا ينظرون لغزة من خلال الواجهات الزجاجية لشارع عمر المختار .. فلم تكن غزة خلف تلك الواجهات الزجاجية للحوانيت والدكاكين المرتصة كالسردين فى العلب .. لم تكن غزة هى الكريستال التشيكى .. ولا الويسكى الاسكتلندى .. ولا سيجارة « المالبرو » الأمريكية .. ولا قمصان النايلون .. ولا العطور الفرنسية .. ولا كل ما يمكن أن تستبدله البرتقالة المصدرة .. أو الجنيه الاسترلينى الذى كان يصب فى شرايين ـ غزة ـ من عرق أبنائها فى المهاجر .. ودمهم .. لم تكن غزة خلف تلك الواجهات .. كانت غزة هناك .. على الرمال التى تطل على البحر .. تقطف أثمار البرتقال من أمواج البحر .. كانت غزة الأخرى هناك .. تبنى وتتسلخ كفها ، وهى تضع الحجر فوق الحجر .. تلد فى أحضان المعسكرات .. الجيل الثالث من أجيال الانتفاض على الكارثة .. ورفض الهزيمة .. كانت غزة الأخرى تبنى وتزرع وعيونها على الأسلاك الشائكة .. وهى تحلم بذلك اليوم .. الذى تلقى فيه بحبة القمح الأولى فى تلك الأرض خلف الأسلاك الشائكة .. وبعد غيبة كل تلك السنوات .. كانت غزة الأخرى تحلم بذلك اليوم .. الذى تتدلى فيه من أعناق أبنائها وسواعدهم عناقيد الرصاص .. كما تتدلى عناقيد العنب من كروم الدوالى .. لقد كان الحلم صديقا دائما لعيون غزة ..

... فى ذلك اليوم من صباح أول يناير ١٩٦٥ .. كان هناك

همس يتردد في شوارع غزة ·· وكل ضجيج البيع والشراء وأبواق العربات لم يستطع أن يطغى عليه ·· كان الناس يسأل بعضهم بعضا عن أولئك الرجال الذين صدر باسمهم أول بلاغ للعاصفة·· وسموا أنفسهم بالجناح العسكرى لتلك المنظمة التى أعلنت أن اسمها « فتح » ·· والتى انطلقت باسمها الرصاصة الأولى ضد الاحتلال الاسرائيلى ··

··· من هم ·· ؟ ما أسماؤهم ·· ؟ وعشرات الأسئلة الأخرى التى راح الناس فى غزة ·· رجالا وشيوخا ونساء وأطفالا ·· يبحثون عن أجوبة لها ··

··· ورغم أن الكثير من الأسئلة التى كانت على شفاه الناس لم يتلقوا أجوبة عنها ·· فان الناس لم يتمالكوا أنفسهم من الارتعاش، وقد أخذت البلاغات العسكرية عن عمليات فتح تتوالى ·· ولم يعد الناس يهتمون بمعرفة الأسماء ·· ولا الاتجاهات السياسية لأولئك الذين تصدر البلاغات العسكرية باسمهم·· فلقد كان الناس يعرفون بحاسة البارود ·· أن فوهة البندقية التى تصوب الى صدر الاحتلال ·· تكفى لـكى يحس الناس بدفء الصدق فى تلك البلاغات ·· وان اليد التى تمسك بالبندقية هى يد فلسطينية صديقة ··

***

··· هكذا كان موقف غزة ·· التى تبنى وتزرع ـ من البلاغ الأول ·· والبلاغات التى تلته ·· ولم يكن موقف سكان ـ الجيتو ـ الفلسطينى فى الأرض المحتلة أو فى هذا البلد أو ذاك ·· الذين أخرجهم البلاغ الأول من ظلمة تلك الأسوار ·· يختلف عن موقف غزة ·· كان هم الآخرون يحسون أن البلاغ الأول ·· هو جواز سفرهم فى الوطن العربى ·· وفى العالم أيضا ··

··· أما حال المثقفين الفلسطينيين فى غزة والخارج·· المعزولين

والمحنطين خلف أكثر من سور ·· الواقفين فى الواجهات الزجاجية لمكتباتهم ·· أو الذين سقطوا تحت أنقاض الكتب ·· فقد راحوا يقلبون فى كتب التكتيك والاستراتيجية ·· ويقلبون أختام الثورات ·· ويخرجون من أرشيفهم أكثر من مذكرة تفسيرية عن الثورة المسلحة أو حرب التحرير ·· كانوا يرفعون حواجبهم ويسألون ··

ـ كيف يمكن أن يحدث هذا ·· ؟

وكانوا يتعجبون ·· ومثار عجبهم ودهشتهم واستغرابهم ·· أن الذين أصدروا البلاغ الأول ·· لم يطلبوا ترخيصا منهم باعلان الانتفاضة المسلحة ضد العدو ·· ومن أجل هذا استغرقوا طويلا فى قراءة الملفات والبحث عن البطاقات الشخصية لأولئك المقاتلين ··

لم يكن لون غزة ... هو لون زجاجات الويسكى ... فى الواجهات الزجاجية لشارع عمر المختار ... لم يكن لون جلدها ... هو لون قمصان النايلون فى تلك الواجهات ... وما أسرع ما ظهر اللون الحقيقى لغزة ... « اللون الكاكى » ...

... وبدأ « اللون الكاكى » .. يظهر فى شارع عمر المختار ، وفى شوارع المعسكرات .. لقد ظهر جلد غزة الحقيقى .. وما أروع الوطن حينما يعود الى لونه الطبيعى .. حينما ينتزع عن جلده تلك الملصقات والاعلانات والأوراق المصقولة الملونة..ويعرفه العالم بلونه الحقيقى : « لون الكاكى » ...

... ولم تكن غزة تنفض عن جلدها غبــار الخطب الجوفاء ، و « نكش » بكعب البندقية الذباب الذى عشش .. ولسنوات طويلة .. فى أفواه الميكروفونات .. لم تكن تذود عن أعمدة وأسلاك التليفونات فقط .. تلك الطيور السوداء التى ما كفت تصيح طوال أعوام الرحيل والمنفى .. بل كانت غزة تبدل أسلوبها فى الحياة أيضا ..

... الصورة القديمة الرثة المهترئة حتى العظم .. والتى كادت أن تصبح طابع البريد على غلاف رسالة موجهة الى غزة أو صادرة منها ، كان عليها أن تتغير ، صورة الأطفال المسلولين فى مستشفى معسكر البريج .. والذين يرصون أمام سررهم .. كما ترص العصافير المذبوحة فى خيط واحد .. أمام الزوار الأجانب أو السياح وهم ينشدون .. « اننا لعائدون » .. كان على هذه الصورة أن تتغير .. فلم تكن غزة فى حاجة لدمعة تتحجر فى عين سائح أو زائر .. أو دمعة تسقط منها وهو ينظر الى الأطفال المسلولين والمربوطين فى خيط واحد كالعصافير المذبوحة ..

... للمرة الثانية كان على غزة أن تغير هذه الصورة التى كادت أن تصبح صورتها المميزة فى العالم .. وأن تغير أيضا ذلك الانطباع الذى يخرج به الزائر الصديق أو السائح الذى يريد أن يتفرج على مأساة حية .. حينما يؤتى به لزيارة أحد معسكرات اللاجئين.. كان على هذه الصورة أن تتغير .. وكان على غـزة أن تفرض أيضـا .. أسلوبا جديدا تخاطب به العالم .. تخاطبه بكلمات من قاموسها هى .. وليست من قاموس أحـد غيرها .. فلم يـكن اسـم اللاجئين الفلسطينيين .. أو ذلك الشيء القديم كالحيوان البائد الذى اسـمه القضية الفلسطينية .. لم يكن ذلك الاسم يذكر .. الا حينما يلقى المدير العام لوكالة غوث وتشغيل اللاجئين تقريره السنوى فى الجمعية العمومية للأمم المتحدة.. يطالب به دول الأمم المتحدة بمواصلة تقديم اعاناتها .. لسكان « الجيتو الجديد » من الفلسطينيين .. ويتبرع من يتبرع .. ويصمت أمام هذه المزايدة الآدميـة من يصـمت .. ويرفض من يرفض .. ثم يقفل باب التبرعات .. بعد أن كان العطاء يرسو دائما على الولايات المتحدة الأمريكية .. التى كانت تتحمل العبء الأكبر فى بقاء الفلسطينيين فى معسكراتهم خلف أسـوار الجيتو الجديد .. الذى بنته لهم .. بأيدى المحتلين الاسرائيليين ..

... وعلى موسيقى مارش « المـارسلييز » وليس على موسيقى « المـارش الجنائزى » .. الذى سارت غزة على موسيقاه طويلا .. بدأت أقدام غزة تضرب الأرض .. وتثير خلفها دخان البارود ..

« ... اللعنة على المحتل ...
ليدو الرصاص دائما تحت نوافذه..
وليمزق قلبه الرعب ... »

... وقد لعنت غزة المحتل .. بالرصاص .. بالزجاجات التى ملأتها بماء النار .. بالقنابل اليدوية .. بالوقفة الباسلة للحامية المصرية العربيــة ـ الفلسطينية ـ خلف متــاريس الحجر والرمل فى قمة جبل المنطار .. الموضع الاستراتيجى الوحيد فى غزة .. والذى يطل على الأسلاك الشائكة للمحتل ـ وعلى الطريق المسدود بالألغام والذى كان يصل ذات يوم بين مدينة بئر السبع وغزة .. ولم تتمكن قوات الاحتلال الاسرائيلية من احتلال موقع الجبل .. الا بعد أن دكته بقنابل الطائرات .. وأحرقت حتى التراب بقنابل النابالم .. كانت غزة تضرب من البحر ومن الجو ومدافع الميدان فى القلب .. بعد أن عزلتها القوات الاسرائيلية وقطعتها بالسونكى من الوسط ، حينما استولت على جسر وادى غزة .. الشريان الوحيد الذى يصل بين غزة ومعســكرات اللاجئين ـ فى صدر القطاع ـ ويمتد الى خان يونس فرفح الفلسطينية فرفح المصرية ـ ثم الطريق الى القاهرة .

***

لقد تم احكام الحصار حول القطاع .. معسكرا ومدينة .. وكان النـــاس فى غزة ـ رقم القصـــف المتواصل ـ حول أجهزة الترانزستور ـ بعد انقطاع التيار الكهربائى .. يحركون الابرة فى اتجاه القاهرة .. وكان صوت القاهرة يأتى من بعيد مختلطا بأزيز

الطائرات ٠٠ وبانفجارات القنابل ودوى الرصاص ٠٠ ثم كان الناس خلف جدران بيوتهم يتنقلون بين الاذاعات العربية٠٠ كانت الأصوات تصلهم مبحوحة مرتعشة ٠٠ وكأن المذيعين قد أوشكت أن تتقطع حبالهم الصوتية من فرط ما صرخوا وصاحوا فى اليوم الأول والثانى من أيام العدوان الاسرائيلى٠٠كانت الأصوات ـ عبر الاذاعات العربية ـ مبحوحة ومحترقة٠٠ وكأن الناس فى غزةوخان يونس ومعسكرات اللاجئين يخيل اليهم أن خيوطا رفيعة من الدخان قد راحت تتصاعد من أجهزة الترانزستور ٠٠ وأن الدخان يشبه رائحة لحم محترق ٠٠ أو مطاط ٠٠ كان رائحة الحناجر المحترقة ٠

٠٠٠ الدم فوق الجبين ٠٠ وكل الجراح وثقوب الرصاص فى الصدر ٠٠ والبندقية ممددة الى جانبها ، وقد قالت فوهتها آخر كلمة ٠٠ سقطت غزة ٠٠ وقبلها قد سقطت خان يونس ومعسكرات البريج والنصيرات والمغازى ٠٠ سقطت ووجهها المصبوغ بالدم ملتصق بزجاج نوافذها المحطمة ٠٠ وبدأ يرتفع من الشوارع دوى جنازير الدبابات الاسرائيلية ودوى الأصوات المحشرجة فى مكبرات الصوت المثبتة فوق مقدمات عربات الجيب العسكرية ٠٠ تعلن حظر التجول ٠٠ وأن يقوم كل من يملك سلاحا ٠٠ بوضعه على باب بيته ٠٠ وارتفعت الراية الاسرائيلية على سارية غزة ٠٠ بعد أن طردت منها منذ أحد عشر عاما ٠٠

***

ان الحجر مهما بقى مدفونا تحت التراب ٠٠ ومهما سقط عليه المطر ٠٠ لن تنبت له جذور ٠٠ ولن يشق التراب بساقه الخضراء

الصغيرة ·· ولكن الأكاذيب الكبرى فى التاريخ ·· تلك الوحول التى تجمدت وتحولت الى أحجار ·· تنبت لها جذور ·· ليس بفعل امتزاج المطر بالتراب ·· ولكن بفعل تتابع السنين على مر القرون ··وعندها تنشق ساق هذه الأكذوبة أو تلك سطح التراب··وترتفع الى أعلى ·· وتتحول الى شجرة تعطى الثمر ·· والوحول تتحول الى أحجار كريمة ·· والثلج يتحول الى رخام حين يعكف الناس يفحصون حقائق التاريخ ويمتحنون أساطيره وخرافاته ·· ولكنهم يتقبلونها كحقائق مسلم بها·· وجزء من التراث الذى ورثوه عن الآباء والأجداد والرواة ··

... ولم يكن رســول الفلسطينيين
الجدد.. أحفاد الفلسطينيين القدامى
الى شمشون الاسرائيلى الجديد ...
الى ذلك الوحش الذى ليســت قوته
فى شعره ، ولكن فى عضلات جنازير
دباباته .. لم يكن رســول غــزة
الجديدة هو « دليلة » ابنتهم الجميلة
العـذراء ـ بل كان رسولهم « دليلة
أخرى » ... هى القنبلة ، وأصبح
الديناميت .. ومشط الرصاص...

... وقصة غزة القـديمة مع شمشون الجبـار .. البطل الاسرائيلى التقليدى التـاريخى .. والمسـجلة فى الأوراق القديمة الاسرائيلية ، قصة تستحق أن يقف عندها المؤرخون طويلا .. وأن يقف وقفة أطول من وقفتهم النقاد والشعراء والكتاب فى بلادنا .. فلا يمكن أن نحمل القمح بأيدينـا لكى نلقى به فى طاحونة أساطير العدو .. الذى نواجهه ، العدو الذى يهاجمنا بكل الأسـلحة .. العسكرية والنفسية والأدبية والفنية .. وأسلحة أوراقه القديمة أيضا .. التى تتألف منها أساطيره وخرافاته وعنجهياته العرقية ..

... وليس من غريب الصـدف أبدا ، أن تكون شـخصية شمشون .. الاسرائيلى القديم من أكثر الشخصـيات قربا لقلب الهر « ادولف هتلر » رغم عدائه للسامية .

وفى الجلسات الخاصة «للهر».. ومع الصفوة المختارة لبطانته العسكرية .. كان لا يفتأ يردد ، وهو يضرب المنضدة بقبضة يده:

لقد كان رائعـا ذلك الشمشون ... ، ولم يكن ينقصه غير جواز سفر ألمانى .. لكى يصبح بطلا من أبطـال العـالم على مر العصور .

... غير أن بعض المؤرخين ونقاد الأدب والتاريخ القديم ـ العرب ـ قد أعطـوا وهم لا يدرون شمشون الاسرائيلى ـ جواز سفر ـ لكى يمر عبر حـدود تاريخهم ، ويصـبح بالتـالى جزءا من تاريخهم الفولكلورى .. فلا يزال شمشون الاسرائيلى هو البطل

الذى لايقهر·· البطل الذى يقتل ألفا من الفلسطينيين بفك حمار··! البطل الاسرائيلى الذى يشق بكفه صـدر الأسد الى نصفين ·· ثم يأتى النحل فيتخذ من صدر الاسد المفتوح خلية له ·· من أجل أن يجىء شمشون بعد ذلك ليقطف العسل من صدر الاسد ·· شمشون الذى لم يتمكن منه الفلسطينيون ـ الا بعد أن دفعـوا له بدليلة ـ احدى بناتهم ـ لكى تعرف سر قوته وبطشه ـ وسرعان ما تكتشف بعد محاورات ومناورات ·· أن قوته تكمن فى شعره ·· فتقصه·· ثم تدفع به لأيدى أعدائه ·· الفلسطينيين··! الذين سرعان مايفقأون عينيه ·· ويرغمونه ·· امعانا فى اذلاله ـ وهو البطل الاسرائيلى على جر طاحون قمحهم ـ بدل البغل ـ وهذه المأساة ·· أو الكوميديا السوداء ـ قد كتبت بحيث تغرورق عيون المستمعين أو القراء العرب لأسطورة شمشون ·· لعذابه وهو فى أيدى سجانيه الفلسطينيين ·· وترتفع الأصوات تلعن دليلة ·· تلك المرأة الغانية الجاسوسة التى قبضت ألف قطعة من الفضة ـ مقابل كشف سر شمشون البطل الاسرائيلى وتسليمه لاعدائه ـ والتى أصبحت فيما بعد رمزا للمرأة الخائنة ـ فأصبح اسم دليلة المحتالة يلصق بكل امرأة تخون رجلها·

***

ومأساة من يستمعون أو يقرءون ـ أسطورة شمشون ـ تبلغ أوجها ·· حينما يحول الفلسطينيون أهل غزة وأصحابها ـ البطل الى مهرج ·· ثم يأتون به فى عيـد الاله الفلسطينى داجـون ، لكى يتفرجوا عليه ·· ثم ترتفع حناجر المستمعين أو القارئين وتقصف كالرعد حينما يمسك شمشون بعمودى المعبد·· ويهزهما·· ويطيح بهما وبالمعبد فوق رءوس الفلسطينيين ـ وهو يطلق صيحته المشهورة كطرزان ·· « بى وبأعدائى يارب » ··

***

غير أن غزة القديمة ـ بسكانها الشرعيين الأصليين ـ الذين هم الفلسطينيون ـ الذين حولهم بعض الكتاب والنقاد الى هنود حمر ـ يقتلهم «الكاوبوى» الأمريكي ويطاردهم بالرصاص ٠٠ ويرتفع تهليل المشاهدين ـ للكاوبوى الأمريكى ـ كلما أسقطت رصاصته هنديا أحمر ٠

ولقد كان شمشون هو ذلك «الكاوبوى» ٠٠ الذى كنا نهلل له ونحن لا ندرى كلما قرأنا التاريخ المكتوب فى تلك الأوراق اليهودية القديمة ـ وتتبعنا أخبار معاركه ضد الفلسطينيين ٠

٠٠٠ ولكن غزة التى استطاعت أن تقبض على عنق تلك القوة الحيوانية التى لم يكن سر قوتها فى حكمتها أو ضميرها أو فكرها ـ بل فى عضلاتها ٠٠ غزة الفلسطينية القديمة ـ وبواسطة ابنتها البكر الأصيلة دليـلة ـ التى دفعت الى وكر الضبع الهرقل ـ كفدية عن شعبها لانقاذه ـ عرفت غزة كيف تلقى على ذلك البطل الخرافى ، ذلك الدرس السهل ، حينما أرغمته على جر الطاحون ٠٠ كأن غزة الفلسطينية القديمة تريد أن تقول لغزة الجديدة التى تقاتل الآن ذلك الشمشون من الحديد والنار ـ الاحتلال الاسرائيلى ـ ان نهاية كل الطغاة الحيوانات الى الطاحون ٠٠ الى الدوران حول الحجر ٠٠ وبلا نهاية ٠٠ فالقوة الباطشة فى نهاية المطاف لن تحقق ذاتهـا ٠٠ بل ستدمر ذاتها ٠٠ وليسر معها العالم تدمره معها ٠٠ كما فعل شمشون القديم حينما أطاح بأعمدة المعبـد ، فهلك وأهلك معه الكثير من الفلسطينيين ٠

* * *

٠٠٠ غزة الجديدة ، وارثة تقاليد غزة القديمة وتاريخها تعرف الآن كيف تقاوم وتقاتل ضد ذلك الوحش الشمشونى الذى يغطيه الحديد ـ وغزة الجديدة لم تكن بحاجة ـ لكى ترسل « دليلة » من

بناتها الى ثكنات الاحتلال الاسرائيلى ـ لتعرف سر قوته ـ بل أرسلت له أقوى وأجمل وأنبل أبنائها وبناتها ـ المقاومة ـ أرسلت له أصلب أغصانها وأكثرها عطاء وخضرة : البندقية ، وهى محشوة بعناقيد الرفض والغضب : الرصاص ٠٠ وفوق تلك الحلبة التى طولها ستة وأربعون كيلومترا وعرضـها عشرة كيلومترات ٠٠ بدأ الصراع ٠٠ بين شمشون القديم الجديد ٠٠ والاله الفلسطينى الجديد ، الذى ليس اسمه «داجون» بل اسمه «المقاومة» .

غزة بلا كهرباء ، وبلا تليفون ٠٠ وبلا طابع بريد ٠٠ بلا عربات خاصة أو عامة ٠٠ فقد صادر الاحتلال الاسرائيلى ـ العربات الخاصة والعامة ـ غزة بلا تموين ٠٠ فالأسواق مقفلة ومنع التجول مفروض طول ساعات النهار والليل وحملات التفتيش لا تكف ٠٠ وقد قسمت غزة الى أجزاء ٠٠ ومناطق مفتوحة للتفتيش ٠٠ وجثث القتلى لا تزال ممددة وسط الشوارع وفوق الارصفة ٠٠ لم يتمكن الناس فى غزة من دفن قتلاهم ٠٠ من المقاتلين ٠٠ وبدل أن تلقى غزة بنادقها على أبواب بيوتها ، كمـا كانت تصيح مكبرات الصـوت الاسرائيلية المحمولة فوق العربات العسكرية ٠٠ كان النـاس يتسللون من بيوتهم ـ رغم حظر التجول ويعودون بالبنادق الممدة ٠٠ حول جثث قتلاهم ٠٠ أو يتناولونها من أيديهم التى قبضت على مواسيرها ٠٠

٠٠٠ غزة بلا كهرباء ٠٠ وبلا وسيلة اتصال بالعالم ٠٠ بلا خبز ٠٠ وبلا أفران ٠٠ وبلا بوتاغازات ٠٠ وبدأت غزة تأكل من لحمها ٠٠

٠٠٠ وكان منظرا غريبا للمدينة المحتلة ـ المدينة المقفلة ٠٠ وليست المدينة المفتوحة رغم الاحتلال ٠٠ وأسقط فى يد الاحتلال ـ وفى يد الحاكم الاسرائيلى لقطاع غزة ـ فماذا يفعل الاحتلال الاسرائيلى بالاتوبيسات التى أعدها لحضـور السـياح لزيارة مدينة غزة ٠٠

ورؤية المدينة العاقلة الحكيمة ·· وقد واصلت حياتها اليومية هادئة فى ظل الاحتلال ··!؟

··· كانت الشوارع خالية ·· والدكاكين مقفلة ·· فلا بيع ولا شراء ·· والمدارس مهجورة لا مدرسون ولا طلاب ·· ومكاتب موظفى ادارة الحاكم الادارى العام المصرى العربى ·· كأنها الخرائب· بلا موظفين ·· وبلا توقيعات أو مراجعات من أحد ·· والمحاكم مقفلة ·· المحاكم الشرعية ·· وغير الشرعية ، لقد قرر أهل غزة أن يحتكموا فيما بينهم ·· وأن يؤجلوا قضاياهم الخاصة حتى القضاء على العدوان ·· والتفرغ لقضية واحدة هى قضية «مقاومة الاحتلال» ·· وعلى بعض جدران شوارع غزة وبيوتها ·· كان أحد الطلاب قد كتب باصبع طباشير أحمر ·

قد أقبلوا فلا مساومة ···

المجد للمقاومة ···

··· لم يكن كل شىء هادئا فى ميدان غزة بالنسبة للاحتلال، ولم يكن هناك باب مفتوح فى المدينة غير باب هذه المستشفى أو تلك ، ولمعالجة الجرحى من أهل المدينة ·· وغير جدران غزة المفتوحة لمناشير « الجبهة الوطنية المتحدة » التى رفعت لواء المقاومة السياسية للاحتلال منذ ساعاته الأولى ·· وهكذا وهى تعصب جبهتها بالمنشور السياسى ·· وبمناديل الدم ·· وشعار المقاطعة للعدو ·· واغلاق أبواب المدينة ونوافذها فى وجه حياة احتلاله اليومية، وبالتالى تمزيق مخطط دعايته ·· وتقديم صورة بألوانها الطبيعية لغزة ·· بدأت غزة مرحلة نضالها الاولى فى وجه الاحتلال ·· وبدأ هو الآخر يخطط لمؤامرته الجديدة ·· والتى يمكن تلخيصها فى كلمات : اقامة حكومة فلسطينية عربية ·· تضم الضفة الغربية وغزة ··!

... وبدأ الاحتلال الاسرائيلي يفاوض بعض الوجوه السياسية البالية والباهتة فى غزة .. وبدأ موشى دايان نفسه .. يقوم بهذه الاتصالات .. وحتى بالنسـبة الى تلك الوجوه البالية المهترئة .. فلم تكن قضية الحكومة العربية الفلسطينية المزعومة .. والتى تقام بمبادرة من الاحتـلال الاسرائيلى .. بالقضية التى يمكن أن يتبناها حتى هذا الوجه السياسى المنهار من وجوه غزة .. وبدأت الاتصالات تتم سرا ـ وتحت جنح الظلام ـ كان موشى دايان يتسلل الى هـذا البيت أو ذاك .. ولكن الخيـانة ، حتى ولو وضعت فى ثلاجة .. ووضعت جثتها تحت مئات ألواح الثلج .. فلا بد أن تفوح رائحتها وتزكم الأنوف .

... ولقد فاحت رائحـة جثة الحكومة الفلسطينية العربية وزكمت الأنوف .. وبدأ النـاس يتسـاءلون .. أية حكومة عربية وفلسطينية يريد الاحتـلال الاسرائيلى أن يقيمهـا .. والبنـوك الاسرائيلية تحل محل البنوك العربية المقفلة فى القـطاع .. تحل محل بنك الأمة العربية ، والبنك العربى .. والبنك الفلسطينى .. وبنك الاسكندرية .. أية حكومة عربية يريد الاحتـلال اقامتها ـ وقد ألغى شركة الكهرباء العربية فى قطاع غزة .. وحولها الى فرع من فروع شركته الكهربائية « روتنبرغ » .. والقوانين الأخيرة التى أصدرها .. تبيح للاسرائيليين أن يصبح من حقهم شراء الأرض فى قطاع غزة .. وامتلاكها !!

أخذ الناس يتساءلون بعد أن فاحت رائحة الجثة التي اسمها الحـكومة العربية الفلسطينية .. وهم يخفون تحت طيات التراب أوراق ـ النقد المصرية التى حرمها الاحتلال وأحل محلها : العملة الاسرائيلية .. وفرض العقوبة على من تضبط فى حوزته .. ورقة نقد مصرية ـ أية حكومة عربية هذه التى سوف تعلن فى ظل كل هذه الاجراءات والقوانين للاحتلال الاسرائيلى ..؟!..

...ولقد أجاب موشى دايان شخصيا على كل هذه التساؤلات، حينما قال فى أحد اجتماعاته مع بعض الوجوه الباهتة المشبوهة فى القطاع :

ـ أنا أعرف ماذا يدور بذهنكم .. وتخافون حتى من مجرد النطق به .. انكم تخافون من الدول العربية المحيطة بدولتكم الفلسطينية الوليدة .. ولكننى أعلن لكم .. أننا سندافع معكم ضد أى هجوم على دولتكم .. ان جيش الدفاع الاسرائيلى سيقف الى جانبكم ..؟! ستكون بيننا معاهدة دفاع مشترك ..؟! ..

... بعد هذا التصريح الذى لخص المؤامرة كلها فى كلمات.. راحت الوجوه الباهته .. تتسلل من حجرة الاجتماع .. وجه بعد الآخر .. حتى لم يبق يواجه موشى دايان غير الكراسى بلا وجوه ..

... أسابيع الاحتلال .. تمر ولم تتحول غزة الى استراحة لأتوبيسات السياح الاسرائيليين والأجانب .. ولم تتحول الى منطقة هادئة للمراسلين الصحفيين .. ولم تتحول الى سوق مفتوحة لسلع الاحتلال .. ولم تصبح جزءا من أرض حكومته المزعومة .. ولكنها تحولت الى قاعدة للمقاومة الشعبية المسلحة .. حيث قد تم ولأول مرة وعلى امتداد أرض فلسطين المحتلة .. ذلك الالتحام بين العمل السياسى والعمل المسلح .. وبالتالى أصبحت بيوت غزة وبيوت خان يونس ومعسكرات القطاع كله مفتوحة على مصاريعها للمقاتلين المسلحين ..

... كانت غزة ترد على دعاية العدو التى كانت ترتكز على أساس مايسميه «بالارهاب المسلح المصدر .. ؟!» المتسلل عبر حدود هذه الدولة العربية أو تلك الى الأرض المحتلة .. وكان رد غزة بالقنبلة اليدوية .. وبمشط الرصاص .. وباللغم .. ولقد بنت غزة بلحمها ذلك الجسر الذى يربط بين جماهير القطاع والمقاومة

الشعبية المسلحة .. وبدأ الاحتلال الاسرائيلى يضرب بقفازيه الحديديين وجه غزة ورأسها وصدرها .. وبدأت علامة الطباشير البيضاء .. بدأت علامة (×) يراها الناس على أبواب بيوتهم .. كانت علامة الطباشير هى بصمة الاحتلال الدموية التى يضعها فوق باب كل بيت .. قبل أن يقوم بنسفه .. يعطى أصحاب البيت فرصة دقائق .. لاخراج مايمكنهم اخراجه .. وفى معظم الأحوال كان أصحاب البيت يدفعون بكعوب البنادق فى ظهورهم خارج البيت .. ويرغمهم المحتلون على مشاهدة بيتهم وهو ينهار .. ويتطاير خشبا وحجارة وحديدا وزجاجا أمام عيونهم .. وتحت الأنقاض .. كل ما يملكون .

... لقــد أصـبح كل شيء فى غزة معاديا للسامية بالنســبة للاحتلال الاسرائيلى ، كتاب التاريخ ، والمصور الجغرافى وكلمة فلسطين أيضا ...

وكانت علامة « الطباشير البيضاء » ! هي بدء الحملة الهمجية للاحتلال ·· وفي كل الاتجاهات ·· في ساحات المدارس التابعة لوكالة غوث اللاجئين وتشغيلهم ·· وفي المدارس التي كانت تتبع مباشرة الادارة العربية المصرية ·· كومت كتب التاريخ والجغرافيا والتربية الوطنية ·· وكل ما يربط الطالب الفلسطيني بأرضه وبتاريخه ·· وأضرمت فيها النيران ·· وكانت التهمة الموجهة الى تلك الكتب ·· : العداء للسامية ·· والحض على الكراهية ·· لقد أصبحت خريطة فلسطين العربية معادية للسامية ·· وأصبح التاريخ القديم والحديث لفلسطين معاديا للسامية ·· وأصبحت ثورة عام ١٩٣٦ الفلسطينية العربية ضد الانتداب البريطاني معادية أيضا للسامية ، وتحض على كراهية الاسرائيليين·· كانت المكارثية الجديدة ترفع علمها فوق المدارس ·· وبدأت معسكرات التعذيب النازية القديمة تنتقل بكامل ديكوراتها ·· وسجانيها وأدوات تعذيبها وحتى بطوبها المحروق ·· مع كل الاضافات الجديدة التي أضافها لمعسكرات التعذيب ·· الجلاد الاسرائيلي «ايليتو مزراحي» ·· مهندس معسكر التعذيب النموذجي وقائده في معتقل «المسكوبية» بالقدس الجديدة المحتلة ·· والتي قام بتصديرها الى كافة معتقلات المدن والقرى الفلسطينية المحتلة ·· الى معسكرات معتقلاته وحجرات تعذيبه في مدينة غزة ·

***

··· وهذه هي صورة باللونين الأبيض والأسود ·· صورة بلا رتوش للمعتقل الفلسطيني ·· من رجال المقاومة المسلحة أو من

المناضلين السياسيين ·· والأدوار التي يمر بهـــا منذ أن تطأ قدماه وهو معصوب العينين عتبة المعتقل ويدفع وفوهة البندقية فى ظهره ·· ليغلق عليه باب حجرة التعذيب ·

* * *

● حينما يصمد المعتقل فى التحقيق ·· وهو يواجه عشرات المصابيح الكهربائية المصوبة الى وجهه كفوهات البنـــادق ·· حينما يصمد فى وجه عشرات الكاميرات التى تلتقط أدق ملامح وجهه ·· وهو يجيب على أسئلة المحقق الاسرائيلى ـ من رجال المخـــابرات ـ أو يصمت ـ تقوم هيئة تعذيب المعتقل بعرض شريط ســـينمائى لمختلف مراحل حرب الخامس من يونيو ·· وفى اتجاه تدمير الروح النضالية والنفسية للمعتقل وللاجهاز على مقاومته ، ومن ثم الجلوس على كرسى اعتراف الاحتلال ·

ويصمد المعتقل ·· وفى هذه الحالة يقاد الى زنزانة (٨٠ سم × ٦٠) بعد أن تقطع كل الأزرار من ثيـــابه ·· وينتزع حزامه وأربطة حذائه ·· ثم تبدأ تدور تلك الاسطوانة التى يرتفـع منها الصراخ والصـــيحات الهســـتيرية وشهقات الألم ·· وكل المؤثرات الصوتية المسجلة والموجودة فى أرشيف المعتقل ·

ويظـل المعتقل فى زنزانته الانفرادية يســـمع هذه الاسطوانة لساعات وساعات ·· ثم يفتح باب الزنزانة ويعاود أحد السجانين سؤال المعتقل حول ما لديه من معلومات يريد أن يدلى بهـــا ·· ويصمت المعتقل وتبدأ المرحلة الثالثة ·

فى هـــذه المرحلة يقاد المعتقل الى زنزانة أوســـع نسبيا من الزنزانة الأولى (٢٠٠سم × ١٥٠) لافساح المجال للكلاب البوليسية المدربة ·· حيث يعرى المعتقل تماما ·· ثم تبدأ الكلاب فى هذه المرة عملية الاستجواب الدموية ·· تأخذ الكلاب تقفز فوق كتفى المعتقل

الذى أوقف ووجهه للحائط وذراعاه فوق الجدار الى أعلى ·· تقفز فوق الكتفين ·· وتعضه فى عنقه وفى كتفيه ثم تنحدر الى أسفل ·· لتعضه فى ظهره ·· ثم فى سـاقيه ·· والـكلاب فى هذه المرحلة لا تنهش ولا تقضم لحم المعتقل ·· فهى مدربة تماما على العض بدون اسالة الدماء ·· فالهـدف فى هذه المرحلة هو احداث الرضوض والكدمات فى كل جزء من أجزاء جسم المعتقل فلا يستطيع بعدها أن يرقد على جنبه الأيمن أو الأيسر أو على ظهره أو صدره ·· وتحرمه من النوم ·· لكى تقـدمه لقمة سائغة لعمليـات الاستجواب ·· فيما بعد ·

... لم يعد أمام المعتقل فى حجرات التعـذيب الاسرائيلية غـير طريقين للموت : الموت بوساطة الكرباج فوق الظهـر .. أو الموت بالرصاص فى الصدر .. وهذه هى كل فرص الحياة التى يقدمها الاحتلال للمعتقل ...

● وفى حالة اصرار المعتقل على الصمت .. يلقى وهو فى هذه الحالة التى طرزت فيها الرضوض والكدمات أجزاء جسده .. يلقى فوق لوح من الخشب فرشت فوقه ضلوع التين الشوكى (ذات الأشواق الحادة) حيث يمدد المعتقل فوق اللوح .. ثم يبدأ أحد المذبين الاسرائيليين فى القفز فوق الصدر بحذائه فتغوص الأشواك ثانية فى لحم الصدر .. وحين يواصل المعتقل اصراره على الصمت ورفض الاجابة على أسئلة المحقق الاسرائيلى .. يرش ظهره وصدره «بالسبيرتو» .. ثم تبدأ عملية الجلد بكرباج مصنوع من أسلاك التليفون .. حتى يغمى عليه .

... وفى هذه المرحلة يصحو المعتقل .. ليجد نفسه فى زنزانة وقد تمدد فوق سرير من الأسمنت وقد قيدت يداه وقدماه الى قوائم السرير الخلفيتين والأماميتين .. لتبدأ رحلة جديدة من رحلات التعذيب .. والاغراء .. وتبدأ المرحلة الجديدة بدخول فتاتين اسرائيليتين ، وتأخذ الفتاتان مكانهما فوق السرير .. واحدة الى جانب الرأس للمعتقل .. والثانية فى منتصف السرير .. تحل الأولى وثاق يديه وتخرج الثانية علبة السجائر .. وتقدم له سيجارة .. ثم يأخذان يحاورانه .. ويأخذ الحوار فى البدء شكل تمجيد الاسرائيليتين .. لبطولة ذلك المعتقل وصموده فى وجه كل ماواجه من صنوف التعذيب .

... ثم تبدأ ابرة الاسطوانة تنحرف .. وهى تدور الى الغرض الذى من أجله دفع بالفتاتين الاسرائيليتين الى زنزانة المعتقل حينما

تؤكد له الفتـــاتان أن نضاله داخل الزنزانة لا فائدة منه ٠٠ ولن يستطيع أن يجنى ثمراته ، ولن ينتهى به الى شيء٠٠وهما لاتطلبان أن يعترف أمام المحققين بكل ما يعرف ـ فلا شك أنه يعرف الكثيرـ هذا ما تهمس به الفتاتان ٠٠ ولكنهما تطلبان منه أن يعترف بالقليل القليل ٠٠ والذى يكفى لانقاذ حياته ٠٠ وتؤكد الفتاتان له ٠٠ أنه سيتم اطلاق سراحه على الفور ٠٠ وسيعلن بوساطة الصحف والاذاعة أنه هرب ٠٠ حتى لا يعرف أحد من زملائه هنا أو هناك فى الأرض المحتلة أو خارجها أنه قد أدلى بهذا القليل القليل ٠٠ وتخرج احدى الفتاتين وتبقى الفتاة الثانية وحيدة معه٠٠ فتخرج قطعة حشيش٠٠ وتفرغ سيجارة ٠٠ ثم تملؤها ثانية بالمخدر المختلط بتبغ السيجارة وتقدمها له وهى تقول :ـ

ـ ستريح أعصابك كثيرا ٠٠ انك متعب ٠

● وتبدأ عملية الاغراء ٠٠ وتفتـــح صفحة جديدة بالنسبة للمعتقل الذى عليه أن يقاوم الارهاب والتعذيب والمخدرات والجنس٠٠ وحينما تفلس تماما كل محاولة الفتاة الاسرائيلية السجانة ٠٠ تعيد شد وثاق يديه ٠٠ ثم يغلق باب الزنزانة من جديد ٠٠ لتبدأ ورقة جديدة فى الملف ٠

يدخل سجان هذه المرة ٠٠ ويقـــوم بحقن المعتقل فى ذراعه ويقول له : انه سيصاب بالجنـــون ٠٠ اذا ما واصل الصمت ولم يعترف ٠٠ واذا ما قرر الاعتراف فســـيحقنه بحقنة مضادة لحقنة الجنون ٠٠ وتنطلق فى الوقت نفسه مكبرات الصوت ترتفع منهـــا قهقهات وصيحات وهذيان مجـــانين ٠٠ تشـــبه الى حد بعيد تلك الصورة الصوتية لهياج المجانين فى مصحة عقلية ٠٠ ويضاف الارهاب الى درجة الجنـــون ٠٠ بالنسبة للمعتقل الى قائمة مقاومة المعتقل للارهاب والمخدرات والتعذيب والجنس ٠٠ وعندها يدفعه السجان للخارج حتى يوقفه فى ساحة السجن :

● أمام حفرة تشـــبه القبر المفتوح يدفعه السجان ·· وهو يهدده بدفنه حيا اذا لم يعترف ، وحينما يصر المعتقل على موقفه·· يلقى به السجان فى الحفرة ويطلب منه أن يتمدد بطوله ·· وحينئذ يبدأ يهيل فوقه التراب بمجرفته وهو يطالبه بالاعتراف حتى يوشك المعتقل على الاختنـــاق ·· فيتوقف الجلاد ·· لـــكى يأمر المعتقل بالنهوض وقد ملأ التراب فمه وعينيه والسـعال يكاد يقتله ·· ثم يدفعه ببطن المجرفة ويأخذ فى ضربه بها ·· والمعتقل يركض·· حتى يدخله ثانية الى زنزانة جديدة ·· قد تم تسخين أرضـها الى درجة عالية من الحرارة ·· ويقفل السجان الباب خلفه ·· ويقفز المعتقل وهو يحاول عبثا أن يتعلق بأى نتوء فى الجدار ·· يرفع قدميه قليلا عن أرض الزنزانة الملتهبة ·· ويظل يقفز ويسقط حتى يخر على وجهه وقد أغمى عليه ·· عندها يغلق السجان الذى يراقبه من خلال منظار الزنزانة صمام أنابيب التسخين ·

··· بعد هذا كله يؤتى بأطفال المعتقــل ·· لو كان متزوجا وأبا لأطفال ـ ويوقف السجان الأطفال أمام خزانات مملوءة بماء مثلج ·· ثم تبدأ عملية التغطيس فى الخزانات ·· وقـــد أمسك السجان برأس الطفل من شعره ·· ويظل السجان يقوم بتغطيس الأطفال على هذه الصورة ·· حتى يوشك الأطفال على أن يختنقوا·· أو يختنق بعضهم بالفعل ·· ويعود المعتقل بعد ذلك الى زنزانته·· ليلفظ أنفاسه فى حجرة التعذيب ·· أو يقدم لمحاكمة ·· عسكرية صورية ·· تقضى عليه بالسجن مدى الحياة ·

··· أما بالنسبة لبعض المعتقلين الذين ينهـارون تحت وطأة التعذيب ويدلون ببعض الاعترافات ·· فالاحتلال يتظـاهر باطلاق سراحهم ·· يحملهم فى عربات ·· ثم يأمرهم بالنزول ·· ثم تتم المذبحة بعد ذلك باطلاق الرصـــاص عليهم ·· وتعلن الاذاعـة الاسرائيلية فى الصباح ·· أو عند الظهر ·· أو فى المساء ·· أن

هذا المعتقل أو ذاك قد حاول الهرب ٠٠ أما لماذا يقتل المعتقل الذى ترغمه ظروف التعذيب على الافضاء ولو ببعض ما يعرف ٠٠؟ فلكى لا تعرف المقاومة بشـــكل أو بآخر طبيعة المعلومات التى أفضى بها المعتقل ٠

***

٠٠٠ التعذيب فى الحجرات السرية ، ليس غير الوجه الآخر للتعذيب الى درجة الموت جوعا فى الشوارع العلنية ٠٠ وفى الغرف المفتوحة ، فما دامت «علامة الطباشير» ٠٠ لاتكفى للارهاب ، ومادامت « كراسة ايليتو مزراحى » الرمادية لا تكفى لارغام المقاتلين المسلحين والسياسيين على الجلوس على كرسى اعتراف الاحتلال ٠٠ ومادامت المكارثية والمحارق التى أقيمت للكتب فى ســاحات المدارس لم تعد تكفى هى الأخرى ، لارغام الطلاب على قبول البرامج المدرسية التى يفرضها الاحتلال ٠٠ ما دامت كل المذابح الفردية والجماعية وحظر التجول ٠٠ ما دامت كل توابيت الحـــديد والنار والتى مدد فيها المحتل الاسرائيلى ـ غزة ـ لم تستطع أن تقهر روح المدينة وترغمها على الرحيل ـ وهذا هو ما يهدف اليه الاحتلال ـ افراغ قطـاع غزة من جماهير المعسكرات ، افراغها من مضمونها السياسى والجماهيرى ـ والابقـاء عليه كشـكل تسكنه تلك الأقلية التى سرعان ما يغرقها الاحتلال ٠٠ بالمستوطنين اليهود من هنا وهناك ٠

٠٠٠ مادامت كل تلك الأساليب لم تأت بالنتيجة المطلوبة٠٠ فلتحاصر غزة ٠٠ ولتجوع حتى حافة الموت ٠٠ ولتفتـح فى الوقت نفســه وفى أسوار الحصار الاسرائيلى كل النوافذ والأبواب التى يتمكن الناس خلالها من الرحيل ٠

٠٠٠ وبدأت تنتشر فى طول قطاع غزة وعرضه ٠٠ مكاتب

السياحة .. اسما .. والترحيل والتهجير مضمونا .. كانت هذه المكاتب تقدم تذكرة السفر لكندا .. أو استراليا .. أو الولايات المتحدة الأمريكية بالمجان .. وتقدم بالمجان أيضا جواز السفر الاسرائيلى .. وتقدم تعهدا مكتوبا بمسئوليتها عن التشغيل .. وتقديم كافة التسهيلات .. وفوق هذا حفنة من الدولارات .. ومع ذلك فلقد ظلت مكاتب السياحة الاسرائيلية تنتظر عبثا أن يقف أمامها طوابير المزمعين الرحيل عن القطاع .

... وأصبحت غزة كطائر البجع ..
حينما يجوع ولا يجـــد ما يطعم به
فراخه .. يغرس منقاره فى صدره..
ويطعم تلك الفراخ : أحشاءه ...

... وفى الوقت الذى ظلت فيه تلك المكاتب .. كمنـــاطق محرمة بالنسبة لغزة ولمعسكراتها .. فى الوقت الذى ظلت فيه.. كمنطقة موبوءة ترتفع فوقها أعلام الطاعون السوداء .. ألقى الاحتلال الاسرائيلى بكل ثقله فى اتجـاه العمال الفلسطينيين . وبدأ بعمال الميناء .. أولئك الذين كانوا يعيشون على حمل صناديق البرتقال وشحنها ـ فى المراكب ـ ومن ثم الى ظهر البواخر الراسية فى ميناء غزة .. فأوقف الاحتلال شحن البرتقال من الميناء .. وحول عملية الشحن الى ميناء أسدود .. وبالتالى انتزع لقمة البحر المالحة من أفواه عمال البـــحر من المواطنين واللاجئين على حد سواء .. ومع هذا .. فلم يحزم عمال مينـاء غزة سواعدهم ، ولم يحملوها فوق ظهورهم .. ولم ينطلقوا الى مكاتب الترحيل الاسرائيلية .

... واتجه الاحتلال الاسرائيلى الى العمال الزراعيين الذين سحب الاحتلال بساط الأرض من تحت أقدامهم..فاذا كان ترحيلهم عن القطاع معادلة صعبة بالنسبة للاحتلال .. فلا أقل من ارغامهم على العمل .. وفيما يشبه السخرة .. وفى المنـــاطق المحتلة .. وبالتالى يصبحون قوة احتياطية للاحتـــلال .. تحـــل محل عمال الهستدروت الذين عليهم أن يتحولوا الى جنود يوزعون على طـول الجبهة وعرضها .. وطوى العمال الزراعيون ضلوعهم على الجوع ورفضـــوا أتوبيســـات العمل الاسرائيلية التى كانت تقـــف فى انتظارهم .

* * *

... عمال البحر .. ثم عمال الارض .. ثم الطلاب .. ثم طوابير المتعطلين عن العمل .. والموظفين الذين كانوا يعملون فى الادارة العربية المصرية.. فهجروا مكاتبهم .. واعتصموا ببيوتهم.. ثم غزة ومعسكرات القطاع .. غزة التى تحولت الى تلك «البجعة» .. حينما يجوع فراخها .. ولا تجد فى منقارها ما تطعمهم.. تشق بمنقارها صدرها .. وتطعم فراخها .. قطعا من أحشائها .

ـ قف من أنت ؟
ـ أمين
ـ محلك اثبت .. سر الليل
ـ غزة
ـ تقدم ...

... غزة « البجعة » .. التى تطعم أبناءها لحم أحشائها .. وغزة البجعة التى تغرس ريشها حرابا فى عنق الاحتلال الاسرائيلى .. غزة التى تحولت البرتقالة فيها الى قنبلة .. وتحولت عناقيد العنب وحبات الزيتون .. الى أمشاط رصاص .. غزة التى لم يستطع الاحتلال أن يطمس وشمها العربى المحفور فوق ساعدها .. حتى بقنابل النابالم .. غزة التى تعمد أبناءها وبناتها كل يوم .. بدمها ودخان بارودها .. غزة .. غزتنا جميعا .. تمد يدها من خلال الأسلاك الشائكة للاحتلال .. من فوق أسوار الحصار .. ويرتفع صوتها من حجرات التعذيب .. ومن خلف الأبواب التى وضعت عليها علامة الطباشير البيضاء .. يرتفع صوتها .. رغم ضجيج جنازير الدبابات الاسرائيلية .

***

اللعنة على المحتل ..

ليعلو الرصاص دائما تحت نوافذه

ليمزق قلبه الرعب ...

... فى مكان ما بقطاع غزة .. كان أحد الفدائيين عائدا الى قاعدته .. بعد احدى العمليات المسلحة .. وارتفع صوت من القاعدة يقول :

ـ قف من أنت ‥ ؟ وأجاب الفدائى :

ـ أمين ‥

وانطلق الصوت ثانية من القاعدة يقول :

ـ محلك اثبت ‥ سر الليل ‥ ؟

وأجاب الفدائى : ـ غـــزة ...

وكان رد الصوت فى القاعدة : ـ تقـــدم ...

وتقدم الفدائى من قاعدته ‥ لقد أصبح اسم غـزة ، هـو سر الليل ‥ وسر النهار ‥ وسر المقاومة أيضا ‥

... كأس من الحبر

نخب غــــزة ...

خاتمة

••• سألت أحد الأصدقاء العائدين الى غزة بعد اقامة قصيرة ، عن أكثر الجبهات التى يقاتلون فيها ضراوة وأهمية •• ؟

وأجاب الصديق بلا تردد :

ـ جبهة فك الحصار •• واقامة ذلك الجسر ـ غير المرئى ـ الذى يصل غزة بمدن الضفة الغربية المحتلة •• ومن ثم بالوطن العربى وبالعـالم ••

***

••• ومن حق الصديق « الغزى » ، أن يعطى أهمية قصوى للنضال فى جبهة فك حصار الاحتلال والذى يفرضه بأشد أساليب الحصار وحشية وقسوة •••

••• من الصعب تماما أن يتصور المرء مدينة بلا صحف •• مدينة قد حرمت عليها القراءة والكتابة منذ أول يوم فى العدوان•• حينما قامت سلطات الاحتلال باغلاق الصحف التى تصدر فى غزة•• وهى : « أخبار فلسطين » و « غزة » و « الرقيب » و الصراحة » •• فلم تعد تصدر ورقة واحدة تطبع بحروف المطبعة •• وللمزيد من حرمان غزة من صحفها المحلية ، قامت سلطات الاحتلال بمنع دخول صحف الحزب الشيـوعى الاسرائيلى •• حزب (مئيرفرنر ـ توفيق طوبى) الى قطاع غزة ـ وهى الاتحاد والغد والجديد •• حتى تقطع

تماما كل الخيوط التى يمكن أن تربط غزة بما يدور من الأحداث فى أنحاء فلسطين المحتلة وفى العالم ـ وبالقدر الذى يجيزه الرقيب الاسرائيلى ويسمح بنشره فى صحف الحزب الشيوعى ..

... وبالاضافة الى اغلاق الصحف المحلية فى القطاع ومنع الصحف التقدمية والمرخص بها من قبل السلطات الاسرائيلية .. فلم ينج « راديو الترانزستور » من المطاردة هو الآخر..وتحت ستار التفتيش ودوريات الملاحقة التى تقتحم البيوت كلما أرادت هذا بحجة ايواء فدائيين ، تحت ستار التفتيش .. كان راديو الترانزستور يختفى .. والى جانبه أيضا راديو البطارية الكبير وراديو الكهرباء .. وحتى أجهزة التليفزيون التى تعثر عليها دوريات التفتيش فى بعض البيوت ..

... غزة بلا صحف وبلا راديو ـ غير بعض الأوراق السوداء التى يصدرها بالعربية بعض الاسرائيليين المستشرقين ، ومعهم بعض العملاء .. وغير جريدة الجيروساليم بوست الناطقة بالانجليزية ..

غير أن هذين المصدرين الرئيسيين للأخبار بالنسبة لمدينة محتلة ومحاصرة ، لم يكونا كافيين بالنسبة للاحتلال .. الذى يمنع أى اتصال بغزة .. حتى فى اطار هيئة الأمم المتحدة فلم يسمح للجنة التحقيق المنبثقة عنها بدخول القطاع ولا لأية لجنة أخرى تريد التحقيق فى الجرائم التى تقترفها سلطات الاحتلال ضد المعتقلين وضد سكان القطاع المدنيين .. وفوق هذا فسلطات الاحتلال قد حظرت دخول أى صحفى اشتراكى الى قطاع غزة .. وحتى بالنسبة للصحفيين الغربيين .. فلقد أصبح بعضهم فى القائمة السوداء للاحتلال كالصحفى والكاتب الانجليزى الشريف : مايكل آدمز . ومن يسمح لهم بدخول القطاع تكون سلطات الاحتلال قد ضمنت مقدما ولاءهم لها ...

... ان سلطات الاحتلال تقاتل بكل أسلحتها النفسية والدعائية لفرض « أمية الرعب على القطاع » .. الذى جردت مكتباته العامة والخاصة من كل الكتب المتصلة من قريب أو بعيد بفلسطين.. أو بالوطن العربى أو ثقافة الانسان أينما وجد .. وجنبا الى جنب مع السرقة المسلحة للمكتبات العامة والخاصة .. فالمكتبات الداخلية فى البيوت لم تنج هى الأخرى من تلك اليد التى يغطيها القفاز الحديدى ...

***

... الصديق الذى كان عليه أن يعود الى غزة قال وهو يصافحنى مودعا :

ـ لقد شربنا فى « صحة غزة » .. وفى صحة الكفاح المسلح الكثير من الانخاب .. ولكنا نسينا أن نملأ بذلك كأسنا بذلك الشراب الذى لم نذقه .. ونشرب فى صحة غزة ..

وسألته :

ـ أى شراب مر ذلك الذى لم نذقه وكان علينا أن نملأ به الكأس :

وأجاب الصديق :

ـ شراب الحبر .. ففى تلك الظروف التى تحرم غزة فيها من كل وسائل الاتصال خارج أسوار الاحتلال .. فالحبر أشهى من العسل يا صديقى ..

***

... وعاد الصديق الى غزة .. وفى صحة المدينة التى تشرب كل صباح كأسا من البارود .. أرفع نخبها هذه الكأس من الحبر ..